البيت الحــرام

مكانته وخصائصه

الناشر: دار الفاروق للنشر والتوزيع

☜ الحائزة على الجوائز الآتية ☞

جائزة أفضل ناشر ثقافي عام في مصر لعام ٢٠٠٤

جائزة أفضل ناشر للأطفال والناشئة في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر مدرسي في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر للترجمة من وإلى اللغة العربية في مصر لعام ٢٠٠٢

جائزة الإبداع في مصر لعام ٢٠٠٢ (الجائزة الذهبية)

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠١

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠٠

المركز الرابع كأفضل دار نشر على مستوى العالم

في مجال الترجمة في معرض فرانكفورت عام ٢٠٠٠

وسط البلد: ٣ شارع منصور - المبتديان - متفرع من شارع مجلس الشعب

محطة مترو سعد زغلول - القاهرة - مصر.

تليفون: ٧٩٥٣٠٣٢ (٠٠٢٠٢) - ٧٩٤٣٢٠٣ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٧٩٤٣٦٤٣ (٠٠٢٠٢)

العنوان الإليكتروني: www.darelfarouk.com.eg

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

عدد الصفحات ١٢٠ صفحة

رقم الإيداع ٧٩١٦ لسنة ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: 977-345-933-0




البيت الحرام

مكانته وخصائصه

بقلم

أ.د. أحمد عمر هاشم

رئيس جامعة الأزهر السابق

عضو مجلس البحوث الإسلامية

رئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب سابقًا



قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

الآيتان ٩٦، ٩٧ من سورة آل عمران.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فهذا الكتاب فيه بيان لمكانة البيت الحرام وخصائصه؛ فالبيت الحرام هو أول بيت وضع للناس، وهو قبلة المسلمين التي يتجهون إليها في صلاتهم ويطوفون به في حجهم وعمرتهم ويسعدون فيه بالأمن؛ فمن دخله كان آمنًا، ويحظون فيه بالثواب الوافر لأن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه. وقد جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا، فوجب أن يعرف المسلمون مكانته وخصائصه حتى يؤدوا ما وجب عليهم تجاهه وحتى يصونوا حرمته وتتأثر نفوسهم بالجو الروحي فيه، فيعود من حج أو اعتمر منشرح الصدر ويظل مشتاقًا إليه حتى يثوب إليه لأن الله تعالى جعله مثابة للناس وأمنًا، يعودون إليه مرة بعد أخرى ضارعين إلى الله أن يرزقهم العودة مرات بعد مرات لما لمسوه في رحابه من انشراح وتوفيق وارتياح وغفران للذنوب وتطهير للقلوب. وقد أردت مع بيان مكانته وخصائصه أن أوضح أطوار بنائه ومعالمه وفضل الحجر الأسود وفضل زمزم التي جعلها الله تعالى طعام طعم وشفاء سقم؛ فهي لما شربت له كما قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له»[1]. اللهم ارزقنا العودة إلى بيتك الكريم ولا تحرمنا منه يا رب العالمين، وزد بيتك - يا ربي - تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابة وبرًا، وزد من زاره ممن حج أو اعتمر تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه.

ومهابة وبراً. اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام واغفر لي ولوالدي ولأصحاب الحقوق عليّ ولسائر المؤمنين والمؤمنات. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

أ.د. أحمد عمر هاشم

الفصل الأول :
مكانة البيت الحرام

يتناول هذا الجزء الموضوعات التالية :

- **مكانة الحرمين الشريفين**
- **من فضائل البيت**
- **الكعبة قبلة المسلمين**
- **تعيين حدود الحرم ومواقيته المكانية**
- **توسعة المسجد الحرام وحدوده**
- **أمن البيت الحرام**
- **مكانة الحرم المكي**
- **تحويل القبلة**

مكانة الحرمين الشريفين

إن للحرمين الشريفين مكانتهما في الإسلام، ومنزلتهما في قلوب المسلمين، فقد اختار الله جلت حكمته تلك البقاع المقدسة لتكون منزلاً للوحي ومهبطًا للملائكة، ومنطلقًا للدعوة الإسلامية وقبلة للمسلمين، يولون وجوههم شطر المسجد الحرام، وموطنًا لأداء فريضة من فرائض الدين وركنًا من أركان الإسلام. وفي ربوع تلك البقاع المطهرة، نشأت الدولة الإسلامية الأولى. وفي رحابهما، تخرج الرعيل الأول من المسلمين الذين كانوا خير الناس وكان قرنهم خير القرون. لقد رفعوا مشاعل الهدى والنور، وتحملوا عبء الرسالة واستعذبوا الأذى في سبيلها وقاموا بالأمانة الإلهية خير قيام.

ومن أهم الخصوصيات الدينية التي اختص الله تعالى بها الحرمين الشريفين، أنه جعل الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وفي المسجد النبوي بألف صلاة. قال رسول الله ﷺ: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام"[١].

وإذا كان الحرم المكي يضم الكعبة المشرفة قبلة المسلمين التي يتجه إليها المسلمون في كل صلاة، فإن الحرم النبوي ترتبط به أفئدة الموحدين الذين آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً. كما تتعلق به قلوب المخلصين المحبة لخاتم الأنبياء والمرسلين. وفي الحرم النبوي، الروضة الشريفة التي قال عنها رسول الله ﷺ: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة"[٢].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.

ومن أجل هذا كله، عُنِيَ المسلمون، وولاة الأمر فيهم، بهذين الحرمين وبخدمتهما وتوسعتهما جيلاً فجيلاً حتى كانت هذه التوسعة المعاصرة الأخيرة التي تمت في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز وسمو ولي عهده الأمين الأمير عبد الله بن عبدالعزيز؛ حيث أصبحت التوسعة المعاصرة للحرمين الشريفين تمثل أعظم إنجاز حضاري وإسلامي يليق بمكانة الحرمين وقدسيتهما ومنزلتهما في قلوب المسلمين؛ فأصبح يتسع لآلاف المسلمين الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها، مما يشهد لهذا العهد السعودي ولحكومة خادم الحرمين بالإخلاص والصدق والأمانة والمحبة للإسلام والمسلمين، والتفاني في خدمة المقدسات وخدمة الحجيج والعمار والزوار.

وقد قدمت المملكة العربية السعودية أقصى ما في الوسع الإنساني في خدمة الحرمين الشريفين وسائر أماكن الشعائر والمناسك. ولقد أصبحت المدينتان المقدستان درتين في جبين الأمة الإسلامية. نسأل الله تعالى أن يبارك في هذه الجهود وأن يمن على أمتنا الإسلامية بالوحدة والقوة وأن يؤيدها بالنصر إنه سميع قريب.



من فضائل البيت

للمسجد الحرام مكانته العظيمة في الإسلام، فهو أول بيت وضع للناس، وهو مقر الأمن:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]

وقد أشار القرآن الكريم إلى مكانة بيت الله الحرام في قول الله تعالى:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

فقد جعل الله البيت قيامًا للناس يقوم به أمر دينهم بالحج إليه، وأمر دنياهم؛ حيث أظله بالأمن فكان من دخله آمنًا. كما جعل سبحانه الأشهر الحرم قيامًا لهم بأمنهم القتال فيها. واستجاب رب العزة سبحانه دعوة إبراهيم عليه السلام بالأمن والرخاء:

(١) الآيتان ٩٦ و٩٧ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٩٧ من سورة المائدة.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١)

لقد جعل الله البيت مثابة للناس يثوبون إليه ويرجعون إليه من كل جانب، كما جعله مأمنًا من الظلم ومن الإغارات التي تقع في أي مكان سواه.

لقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه فلا يزعجه ذلك ولا يهيجه - فضلاً عن أن يقتله - وما ذلك إلاّ لحرمة البيت. ولمكة المكرمة من الحرمة والعظمة ما يجعل المؤمنين آمنين على عقيدتهم من الفتنة وآمنين على دمائهم أن تسفك وآمنين على أموالهم أن تنهب وآمنين على أعراضهم أن تنتهك.

إنها حرم الله الآمن، ومن أجل ذلك لا يحل حمل السلاح فيها. عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "لا يحل لأحدٍ أن يحمل السلاح بمكة"(٢).

ولكن ليس معنى هذا أن يترك البغاة دون عقوبة تردعهم أو أن يلجأ إليها جانٍ بدم أو ظالم أو قاتل أو معتد على الحرمات أو على الأمن.. لا.. فإن الحرم لا يعيذ عاصيًا أو فارًا بدم.

(١) الآيتان ١٢٥ و١٢٦ من سورة البقرة.
(٢) رواه مسلم.

عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قال به، رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة. فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب".

فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بخربة.[(١)]

والخربة تطلق على كل خيانة، وفي صحيح البخاري أنها البلية، وقال الخليل: هي الفاسد في الدين. وقيل: هي العيب. وقال الترمذي: ومعنى قوله «ولا فاراً بخربة» يعني الجناية.

يقول: من جنى جناية أو أصاب دماً ثم يلجأ إلى الحرم، يقام عليه الحد. ولقد تبرأ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من كل باغ يحمل السلاح على المسلمين. قال رسول الله ﷺ: "من حمل علينا السلاح فليس منا"[(٢)].

الكعبة قبلة المسلمين

إن الكعبة المشرفة هي قبلة المسلمين، وهي في البقعة المباركة والمكان الوسط، تتوسط دنيا الناس شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا. اختارها الله تعالى مهبطًا لوحيه ومنزلاً لملائكته. هذا المكان الوسط، الذي يتسق مع وسطية الدعوة السمحة ويتناسب مع الرسالة العامة الخالدة، يرسل أشعته إلى من حوله من جميع بقاع العالم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

وهكذا اقتضت الحكمة الربانية أن يكون المكان وسطًا في جغرافية الأرض؛ لتتمكن الدعوة أن تنتشر في ربوع الأرض، وتؤدي أمة الإسلام أمانة التبليغ التي حملها الله تعالى إياها؛ حيث نزل الوحي بلسان عربي مبين وفي أمة عربية، وفي مكان وسط من العالم. كل هذا يؤكد وجوب تبليغ الأمانة التي كلف الله تعالى هذه الأمة بها وشرفها بإنزال الوحي على أرضها وإرسال رسول من أنفسهم وقيام القبلة وهي الكعبة المشرفة في هذا المكان الطاهر والحرم الآمن في قلب العالم.

وهكذا تتضح حقيقة نزول الوحي الإلهي في البلد الحرام ووجود القبلة المشرفة داخل المسجد الحرام، فمكة المكرمة هي مركز الكرة الأرضية ووسط العالم بأسره.

وإن قول الله تعالى:

((وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا))[1]

يحدد لهذه الأمة دورها في النهوض بالبشرية ورسالتها في قيادة القافلة الإنسانية. فبذلك، تتبوأ مكانتها كخير أمة أخرجت للناس، شاء الله لها أن تكون أمينة على رسالة السماء وشاهدة على الناس. وحين تتخلى عن هذه الرسالة أو تخل بواجبها تكون قد حرمت نفسها من خيريتها، ومن كونها الأمة الوسط، وفقدت كيانها المعنوي ودورها الريادي بين الأمم. ويستوجب القرآن الكريم - لذلك - على هذه الأمة عبادة الله سبحانه وتعالى والجهاد في سبيل الله حق جهاده، لأنه اختارهم واصطفاهم على سائر الأمم وكلفهم بشريعة لا حرج فيها ولا مشقة ولا ضيق ولا عسر: إنها الحنيفية السمحة، ملة إبراهيم عليه السلام، وقد سماهم الله

(٣) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة. وفي هذا (أي في القرآن الكريم)، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[١]

أي أن الله تعالى جعل هذه الأمة وسطا عدولاً وخياراً ليكونوا شهداء على الناس وعلى جميع الأمم لأن جميع الأمم معترفة بفضل هذه الأمة على كل أمة سواها، ولذلك تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن كل رسول بلّغ قومه. ويشهد رسول الله ﷺ على هذه الأمة، أنه بلغها ذلك.

وفي مقابل هذه المنزلة التي بوأها الله تعالى لهذه الأمة، وفي مقابل النعمة التي أنعمها عليها، على الأمة أن تقوم بشكر ربها سبحانه وتعالى، وما أوجبه الله عليها من عبادة وطاعة ومن أهمها الصلاة والزكاة، وعليهم أن يعتصموا بالله وأن يتوكلوا عليه.

---

(١) الآيتان ٧٧ و٧٨ من سورة الحج.

قال تعالى:

((وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ))[1]

تعيين حدود الحرم ومواقيته المكانية

للحرم المكي حدوده، وأول من نصب هذه الحدود هو سيدنا إبراهيم عليه السلام، وذلك عندما أطلع رب العزة سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام على أماكن المناسك، في قول الله:

﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾[2]

ولكن قريشاً كانت قد قلعت هذه الحدود في زمن النبي ﷺ فشق ذلك عليه، ثم إنهم أعادوها وجددها النبي ﷺ.

وقال مالك: عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هو الذي نصب معالم الحرم بعد أن بحث عن ذلك وحدَّه من طريق المدينة دون التنعيم. وقال الرافعي: هو من طريق المدينة على ثلاثة أميال، ومن العراق على سبعة ومن الجعرَّانة على تسعة، ومن الطائف على سبعة ومن جدة على عشرة.

ولمعرفة حدود الحرم أهمية كبرى في الالتزام بالأحكام الخاصة به من نية الإحرام، ومن تحريم قطع شجره ونباته وشوكه ومن صيد طيره.

وروي في تحديد حدود الحرم أن أنواراً موضوعة من العالم الأعلى الرباني وسراً روحانياً وجه إلى تلك البقاع. وذكر الزركشي في كتاب: «إعلام الساجد بأحكام المساجد»:

(١) من الآية ٧٨ من سورة الحج.
(٢) الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

.. ويذكر أهل المشاهدات أنهم يشاهدون تلك الأنوار واصلة إلى حدود الحرم، ولها منار ينبع منه، ويكون منها الحرمان والأرض المقدسة. ولكل أرض نور وصفة ولون لذلك النور.

نسأل الله أن يمن علينا بصفاء القلوب والظفر بشهود حقائق الأعيان. فهذا حد ما جعله الله حرماً لما اختص به من التحريم وباين به سائر البلاد.

وحدود الحرم من جهة الشمال «التنعيم»، وبينه وبين مكة قرابة ستة كيلومترات، وكادت المباني تتصل به الآن.

وحدُّه من جهة الجنوب «أضاة»، وبينها وبين مكة اثنا عشر كيلومتراً.

وحدُّه من جهة الشرق «الجعِرَّانة»، وبينها وبين مكة قرابة ستة عشر كيلومتراً.

وحدُّه من جهة الشمال الشرقي «وادي نخلة»، وبينه وبين مكة أربعة عشر كيلومتراً.

وحدُّه من جهة الغرب «الشميسي»، وبينها وبين مكة خمسة عشر كيلومتراً.

وللحرم مواقيته المكانية؛ وهي الأماكن التي يحرم منها من يريد الحج أو العمرة، ولا يجوز أن يتجاوزها أحد دون إحرام، وقد بين الرسول صلوات الله وسلامه عليه تلك المواقيت المكانية فجعل ميقات أهل المدينة «ذا الحُلَيْفَة» وهو موضع بينه وبين مكة خمسة وأربعمائة كيلومتراً يقع في شمالها.

وميقات أهل الشام «الجُحْفَة»، وهي في الشمال الغربي من مكة بينها وبينه سبعة وثمانون ومائة كيلومتراً، وهي قريبة من رابغ.

و«رابغ» هي ميقات أهل مصر والشام ومن يمر عليها.

وأما ميقات أهل نجد فهو «قَرْنُ المنازل»، وهو جبل شرقي مكة يطل على عرفات وبينه وبين مكة أربعة وتسعون كيلومتراً.

وأما ميقات أهل اليمن فهو «يَلَمْلَم»، وهو عبارة عن جبل يقع جنوب مكة بينه وبينها أربعة وخمسون كيلومتراً.

وميقات أهل العراق هو: «ذات عِرْق»، وهو في الشمال الشرقي لمكة وبينه وبينها أربعة وتسعون كيلومتراً.

وهذه المواقيت حددها رسول الله ﷺ، وهي مواقيت من مر عليها من غير أهلها، فقد قال ﷺ: «هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهّن ممن أراد الحج أو العمرة»[1].

توسعة المسجد الحرام وبيان حدوده

وعندما كانت الكعبة في أول أمرها، لم يكن حولها سور يحد المسجد، وإنما كان حولها فراغ وفضاء للذين يطوفون حولها، ولم يكن على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه جدار يحيط بالكعبة، وإنما كانت منازل الناس تحيط بالكعبة دون وجود حاجز بين البيوت وبين الكعبة، حتى كانت خلافة عمر رضي الله عنه، وكثرت البيوت، والتصقت البيوت وتزاحمت حتى كادت تطبق على الكعبة والطائفين، فقال عمر رضي الله عنه: إن الكعبة بيت الله، ولابد للبيت من فناء، وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم. فاشترى عمر رضي الله عنه تلك الدور من أهلها وهدمها، وبني المسجد المحيط بها واتخذ لها جداراً، ثم لما جاءت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه من بعده، اشترى أيضًا دوراً أخرى ووسع المسجد المحيط بالكعبة واتخذ له جداراً وبنى المسجد والأروقة وكان أول من اتخذ الأروقة. فلما كان ابن الزبير زاد في إتقان البناء وجعل فيه عمداً من الرخام وزاد في الأبواب. فلما جاء عهد عبدالملك بين مروان زاد في ارتفاع حائط المسجد وحمل إليه السواري في البحر إلى جدة وجيء بها من جدة إلى مكة، وأمر الحجاج؛ فكساها الديباج. ثم

---

(١) رواه البخاري.

كان عهد الوليد بن عبدالملك فزاد في حُليها وسقفها، فلما كان أبو جعفر المنصور وابنه محمد المهدي، زاد في إتقانه.

وقد ذكر الله تعالى المسجد الحرام في القرآن الكريم في عدة مواطن، فقال تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1]

وقال سبحانه:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾[3]

(١) الآية ١٤٤ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١٤٩ من سورة البقرة.
(٣) الآية ١٩١ من سورة البقرة.

وقال تعالى:

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ ﴾[1]

وذكر الماوردي أن كل موضع ذكر فيه المسجد الحرام فالمراد به الحرم إلا في قول الله تعالى: (فول وجهك شطر المسجد الحرام) فإنه أراد به الكعبة.

ونلاحظ أن المراد بالمسجد الحرام في قوله تعالى:

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾[2]

مكة، فقد روي أنه أسري به من بيت أم هانيء بنت أبي طالب، وللعلماء آراء في قول الله تعالى:

((ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ))[3]

فقال ابن المنذر: هم أهل مكة وأهل ذي طوي. وقال مجاهد وطاوس: هم أهل الحرم. وقال مكحول: هم من كان أهله خلف المواقيت إلى مكة فهو من حاضري المسجد الحرام. وبه قال الشافعي إذ هو بالعراق.

---

(١) من الآية ١٩٦ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١ من سورة الإسراء.
(٣) من الآية ١٩٦ من سورة البقرة.

وللحرم حدوده التي حدها سيدنا إبراهيم عليه السلام وذلك عندما أطلعه الله على أماكن المناسك المقصودة بقوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]

ولكن قريشًا قلعت هذه المعالم بعد ذلك، ثم أعادوها وجددها النبي ﷺ، وقد وضع سيدنا عمر رضي الله عنه معالم الحرم، وحدَّ من طريق المدينة دون التنعيم على ثلاثة أميال من مكة، ومن طريق اليمن «طرف أضاة لبن» على مسافة ستة أميال. وقال الرافعي: هو من طريق المدينة ثلاثة أميال، ومن العراق على سبعة، ومن الجعرانة على تسعة، ومن الطائف على سبعة، ومن جدة على عشرة. وعن هذه الحدود قال الشاعر:

وللحرم التحديد من أرض طيبة ∴ ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه
وسبعةُ أميالٍ عراق وطائفُ ∴ وجدة عشرٌ ثم تسع جعرانة

وفي الحكمة من تحديد الحرم بحدود وُجُوه منها:

أولاً: التزام ما ثبت للحرم من الأحكام المشروعة، وإيضاح ما خصه الله سبحانه وتعالى به من خصوصيات حتى لا تنسحب على ما عداه مما جاوره.

ثانيًا: أن اختيار الله تعالى لمكان بعينه تكون له أهميته وأسراره الروحانية.

ثالثًا: لتتحد معالم العبادة في تلك الأماكن ويعلم ضيوف الرحمن أين هم، ولما يتعلق بذلك من حرمة للبيت وزيادة الثواب على العبادة فيه.

(١) الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

أمن البيت الحرام

إن نعمة الأمان من أجلّ النعم الإلهية التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على عباده. ولما كان للبيت الحرام منزلته ولمكة المكرمة مكانتها في الإسلام، كانت نعمة الأمان واضحة كل الوضوح في تأكيد القرآن الكريم عليها في هذه البقعة المباركة، لأن الناس يؤمُّون البيت ويأتونه من كلّ فجٍ عميق، فكان التأكيد على الأمان لبيت الله الحرام، وللكعبة المشرفة وللحجاج الذين يؤمون البيت. إنه الأمان الذي يشمل الزمان والمكان والناس وأيام الحج داخلة في الأشهر الحرم؛ فذو القعدة من الأشهر الحرم ليأمن الحجاج في ذهابهم إلى البقاع المقدسة، وشهر ذي الحجة من الأشهر الحرم؛ ليأمَنَ الحجاج في وقت أدائهم للمناسك، وشهر الله المحرم من الأشهر الحرم؛ لأنه الشهر الذي يعود فيه الحجاج إلى بلادهم، كما كان شهر رجب أيضًا من الأشهر الحرم؛ لأن الناس يؤدون في هذا الشهر العمرة، فارتبط تحريم القتال وجعل هذه الأشهر حرمًا بأداء المناسك فيها.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾(١)

(١) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

فأخبر الله تعالى أنه جعل بيته الحرام مثابةً للناس، أي جعله مرجعًا يرجع الناس إليه ويأتون إليه مرةً بعد أخرى، يأتيه الناس في كل عام، فلا يمر عام من الأعوام ولا يوم من الأيام إلا ويأتي الناس من كل فجٍ عميق. كما جعله الله تعالى أمنًا لمن استجار بالبيت، وأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل عليه السلام، أن يُطهرا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود من كل أذى ومن كل دنس ومن كل سوء، وليطهرا البيت من الآفات والشرك، حتى ترتفع في أرجائه كلمة الحق وكلمة التوحيد. وهكذا، حقق الله هذا الأمل العظيم الذي تمناه إبراهيم عليه السلام، حيث دعا ربه ضارعًا إليه ومنيبًا أن يجعل هذا البلد آمنًا وأن يرزق أهله من الثمرات.

قال سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1]

وفي بيان ما يضفيه الحرم على داخله من الأمان يقول الله تعالى:

((إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ))[2]

وفي بداية بنائه آراء، منها أن أول من بناه هو سيدنا إبراهيم عليه السلام، ورأي آخـــر يرى أن آدم أول من بناه، ورأي ثالث بأن الملائكة أول من بناه،

(١) الآية ١٢٦ من سورة البقرة.
(٢) من الآيتان ٩٦ و٩٧ من سورة آل عمران.

وُروي أنه خلق قبل جميع الأرضيين. وفي قول الله تعالى: (ومن دخله كان آمنا) إشارة إلى ما يجب على الأمة أن تراعيه من وجوب استقرار الأمن واستتبابه في هذا المكان المقدس، وألا يعبث الناس فيه وألا يتناحروا أو يتقاتلوا وألا يثيروا الشغب فيه.

ومن المعاني اللطيفة في كون من دخله كان آمنًا ما أورده بعض المفسرين أنه يكون آمنًا من عذاب الله تعالى. كما أشار القرآن الكريم إلى فضل الله تعالى ونعمته حيث جعله حرمًا آمنًا، وبين سبحانه وتعالى هذا الفضل للمشركين، وأنه جعل بيته حرمًا آمنًا يحرم على الناس أن يدخلوه بغارة أو حرب أو أي قتال والناس من حوله يسلبون وينهبون، بينما الذين يقيمون في الحرم يقيمون آمنين مستقرين. فقال جل شأنه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1]

وقال سبحانه:

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2]

(١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.
(٢) الآية ٥٧ من سورة القصص.

مكانة الحرم المكي

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]

فهو أول بيت وضع للناس وفيه آيات بينات، وتوج الله داخله بالأمان والسلام، وفرض الله سبحانه وتعالى حجه على كل مستطيع.

وروى الإمام مسلم - بسنده - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا". وقال يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها"، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: "إلا الإذخر". والإذخر: نبات طيب الرائحة له قضبان، يسقفون بها البيوت. والقين: هو الحداد والصائغ.

ولقد أعلن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حرمة مكة المكرمة، وفي بعض الأحاديث أن إبراهيم حرم مكة، ولمكة حرمتها، وللمسجد الحرام مكانته، فهو أول بيت وضع للناس، وهو مقر الأمان، من دخله كان آمنًا، حتى لقد كان الرجل يلقى

---

(١) الآيتان ٩٦ و٩٧ من سورة آل عمران.

قاتل أبيه فيه، فلا يزعجه ولا يهيجه. ذلك فضلاً عن أن يتعرض له بسوء حرمةً للبلد الآمن والبيت الحرام.

ومن خصوصيات الحرم المكي أن الله تعالى يعاقب فيه على الإرادة والهمّ.

قال الله تعالى:

((وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ))[1]

ومن خصوصيات الحرم ألا يحارب أهله، ولا يقطع شجره ولا شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، ولا يقطع حشيشه أو نباته. كل ذلك ليكون الأمان عامًا وشاملاً، ليكون الأمن للإنسان والطيور والحيوان والنبات والشجر والشوك؛ فكل شيء آمن والمكان آمن والزمان الذي يكون فيه الحج آمن فهي من الأشهر الحرم. فشهر ذي القعدة يذهب فيه الحجاج إلى بيت الله الحرام، وشهر ذي الحجة يؤدون فيه المناسك، وشهر محرم يعودون إلى بلادهم، وفي شهر رجب يؤدون العمرة. ولذا، كانت هذه الأشهر هي الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال، وكان المكان محرمًا ليأمن الإنسان والحيوان والنبات وجميع من دخله كان آمنًا.

تحويل القبلة

عندما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية كان يتجه في صلاته نحو الكعبة، فلما هاجر الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة، أُمر أن يستقبل بيت المقدس تأليفا لليهود الذين كانوا كثيرين بالمدينة، واتجه المسلمون تبعًا للرسول صلوات الله وسلامه عليه نحو بيت

(١) من الآية ٢٥ من سورة الحج.

المقدس، ومكثوا على هذا قرابة ستة عشر شهرا، وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في هذه الفترة يتمنى أن يأتيه الأمر الإلهي بالاتجاه إلى الكعبة المشرفة كما كان المسلمون يرجون ذلك أيضًا فهي بيت الله الذي أقامه جدهم إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام، وكان الرسول ﷺ وأصحابه يرجون الاتجاه إلى الكعبة، ويقلب الرسول ﷺ بصره في السماء ينتظر أمر ربه ليتحول إلى الكعبة خاصة وقد كثر اللغط من اليهود، وتقولوا الأقاويل، ومن بين ما كانوا يتقولونه: إن محمداً يتبع قبلتنا ويخالف ملتنا. فجاءه الوحي بالأمر الإلهي أن يتجه هو والمسلمون في صلاتهم إلى الكعبة المشرفة؛ ونزل قول الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1]

---

(١) الآيات ١٤٢:١٤٤ من سورة البقرة .

وتحققت أمنية رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتحولت القبلة إلى الكعبة المشرفة، وقد ضاعف رب العزة سبحانه وتعالى الثواب والأجر؛ حيث جعل الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وجعله مثابةً للناس وأمنًا، يثوبون إليه ويرجعون مرةً بعد أخرى، وجعل كل من دخله آمنًا على نفسه وماله وعرضه: (ومن دخله كان آمنًا)، وجعل إسراء رسول الله ﷺ بدايةً منه. ونهايةً بالمسجد الأقصى.

قال سبحانه:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[1]

وأولية المسجد الحرام ثابتة بالقرآن الكريم حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: "المسجد الحرام". قلت: ثم أي؟ قال: "ثم المسجد الأقصى".

---

(١) الآية ١ من سورة الإسراء.

(٢) الآيتان ٩٦ و٩٧ من سورة آل عمران.

قلت: كم بينهما؟ قال: "أربعون سنة" ثم قال: "حيثما أدركتك الصلاة، فصل والأرض لك مسجد".[1]

ولقد كان الاتجاه إلى بيت المقدس في الصلاة إلى جانب كونه تألّيفًا لليهود أو اختباراً، كان فيه إشارة إلى أهميته ومكانته؛ حيث كان قبلة للصلاة ومسرى رسول الله ﷺ. ندعو الله تعالى أن يحرره من الغاشمين الآثمين، وأن يرده إلى أهله المسلمين. وكان تحويل القبلة إلى الكعبة يشير إلى أهمية البيت الحرام ومنزلته في الإسلام. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، فإني آخر الأنبياء وإن مسجدي آخر المساجد".[2]

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.

الفصل الثاني :
أطوار بناء البيت الحرام

يتناول هذا الجزء الموضوعات التالية :

- **أول مسجد بُني للناس**
- **أول بناء للبيت**
- **أول من بنى البيت**
- **بناء الملائكة للكعبة**
- **بناء آدم عليه السلام للكعبة**
- **بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام للبيت**
- **الأطوار الأولى لبناء الكعبة - الطور الأول - الطور الثاني**
- **الطور الثالث**
- **الطور الرابع لبناء الكعبة المشرفة: بناء إبراهيم عليه السلام**
- **الطور الخامس للبيت وما بعده من بناء العمالقة وغيرهم**
- **بناء عبدالله بن الزبير للكعبة**
- **بناء الحجاج ثم السلطان مراد خان للبيت**
- **عمارة الكعبة في العهد السعودي**
- **الحرم المكي في العهد السعودي**
- **توسعة الحرمين في العهد السعودي**
- **توسعة الحرمين في عهد الملك فهد بن عبد العزيز**
- **التوسع في عهد خادم الحرمين**
- **عمارة المقدسات في العهد السعودي عهد خادم الحرمين**

أول مسجد بني للناس

إن أول مسجد بُني للناس على ظهر الأرض هو المسجد الحرام بمكة المكرمة، زادها الله تشريفًا وتكريمًا، فقد قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1]

أي أن أول مسجد بُني في الأرض لعبادة الله هو المسجد الحرام الذي ببكة؛ أي مكة. وُضع مباركًا، لأنه كثير الخير وكثير البر والطاعة والنفع لمن قصده حاجًّا أو مُعْتمراً، وهذا المسجد هدى للعالمين؛ لأنه مصدر الهداية والرشد والخير لأهل الأرض، ولأنه قبلة أهل الأرض جميعًا، ثم وضحت الآية الكريمة خصائص المسجد الحرام وأهم مزاياه، فقال سبحانه:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

أي فيه علامات واضحات تحمل أكبر الدلائل على شرفه على المساجد وفضله على سائر المساجد. ففي المسجد الحرام مقام إبراهيم وهو المكان الذي قام عليه عندما كان يرفع القواعد من البيت، وفيه زمزم والحطيم والصفا والمروة والحجر الأسود، وفيه الصلاة بمائة ألف صلاة، وأن من دخله كان آمنًا. فالأمن للداخل فيه استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمنا). ويؤمه الناس حاجين ومعتمرين، قال الله سبحانه: (ولله على الناس حج البيت من

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

استطاع إليه سبيلا)، أما من ترك أداء فريضة الحج، فإن الله تعالى غني عن عبادته وعن الخلق جميعًا. وعبر عنه بالكفر تغليظًا عليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه[1].

والمسجد الحرام هو أول بيت وُضع للناس كما ثبت في القرآن الكريم: (إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركًا). وبكة هي مكة، وإنما سُميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تكسرهم، فيذلون بها ويخضعون. والَبكُّ: الدق، وقيل: من التَّبَاك، وهو الازدحام في الطواف. وقيل مكة وبكة بمعنى واحد، ورجَّحه ابن قتيبة وغيره؛ لأن الباء تُبدل من الميم، وقيل: بل مختلفان، فمكة بالميم الحرم كله، وبالباء: المسجد خاصة. وقيل: بالميم اسم البلد وبالباء البيت وموضع الطواف.

وكما ثبت في القرآن الكريم أنه أول بيت بُني في الأرض، فقد ثبت أيضًا في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضع على الأرض فقال: "المسجد الحرام"، قلت: ثم أي؟ قال: "المسجد الأقصى"، قلت وكم بينهما؟ قال: "أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل"[2].

وقد أسَّس يعقوب بن إسحاق المسجد الأقصى بعد بناء إبراهيم للبيت بأربعين عامًا، وأما ما جاء في بعض الأحاديث من أن المسافة الزمنية مشكلة، حيث ثبت في سنن النسائي أن الذي بنى المسجد الأقصى هو سليمان بن داود، وأن بينهما - أي بين إبراهيم وسليمان - ألف عام، فالمقصود ببنائه هو تجديده لا تأسيسه.

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٨٧.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

ويرى بعض العلماء أن أول من بنى البيت هو آدم عليه السلام، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: "بعث الله جبريل إلى آدم فأمره ببناء الكعبة، فبناها آدم، ثم أمره بالطواف بها، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وُضع للناس"[1].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتًا. فخطَّ لهما جبريل عليه السلام، فجعل آدم يحفر، وحواء تنقل، حتى أجابه الماء فنودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بنياه، أوحى الله عز وجل إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت"[2].

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم:

قال العلماء: بني البيت خمس مرات: بنته الملائكة، ثم إبراهيم، ثم قريش في الجاهلية، وحضر النبي ﷺ هذا البناء وله خمس وثلاثون سنة، وقيل: خمس وعشرون، ثم ابن الزبير، ثم الحجاج. ثم توالت عليه تجديدات وتوسعات يأتي بيانها بعد ذلك.

أول بناء للبيت

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴿٩٧﴾ ﴾[3]

(١، ٢) رواهما البيهقي في دلائل النبوة.

(٣) الآيتان ٩٦ و٩٧ من سورة آل عمران.

ولا يراد بكونه أول بيت وُضع للناس، أنه أول بيت وُضع في الأرض لأنه كان يوجد قبله بيوت كثيرة، وإنما المراد أنه أول بيت يُعبد الله سبحانه وتعالى فيه. فقد رُوي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: هو أول مسجد عُبد الله فيه في الأرض.

أول من بنى البيت

واختلف الناس في تحديد أول من بنى البيت:

فمن العلماء من يرى أن أول من بنى الكعبة الملائكة وذلك قبل آدم عليه السلام، وهذا الرأي حُكي عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين.

ومن العلماء من يرى أن أول من بنى البيت هو سيدنا آدم أبو البشر عليه السلام. وهذا الرأي رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم.

ومنهم من يرى أن أول من بناه هو شيث عليه السلام، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقال ياقوت في معجم البلدان: إن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى.

لم سُمي البيت بالكعبة؟

عن مجاهد أنه قال: سُميت كعبة لتربيعها والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة. وقال مقاتل: سُميت كعبة لارتفاعها من الأرض، وأصلها من الخروج والارتفاع.

وقال ابن الأثير في النهاية: كل شيء علا وارتفع فهو كعب.

بناء الملائكة للكعبة

فيما رواه ياقوت الحموي - بسنده - عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن أول خلق هذا البيت؛ أن الله عز وجل قال

للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة)، قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: (إني أعلم ما لا تعلمون). ثم غضب عليهم فأعرض عنهم فطافوا بعرش الله سبعًا كما يطوف الناس بالبيت الحرام، وبقوا يسترضونه من غضبه، يقولون: لبيك اللهم لبيك، ربنا معذرةً إليك، نستغفرك ونتوب إليك. فرضي عنهم، وأوحى إليهم أن ابنوا لي في الأرض بيتًا يطوف به من عبادي من أغضب عليه، فأرضى عنه كما رضيت عنكم.

وهناك حكمة إلهيَّة عظمى من جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض ألا وهي الرحمة بالعباد والرأفة بهم، وليس في جعل آدم خليفة مصلحة للخالق وليس ذلك للافتقار إلى ذلك حاشا لله وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، ولكن جعل آدم خليفة للرحمة بالعباد؛ فلا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله سبحانه وتعالى بلا وساطة، ولا طاقة للعباد أيضًا على التلقي بواسطة ملك، فكان من رأفة الله ورحمته أن أرسل رسلاً من البشر، ليكونوا أقرب إلى بني آدم وأيسر عليهم في التلقي والاقتداء والاهتداء بما يدعونهم إليه.

وقال الإمام الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى: وقول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ليس هذا على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك؛ يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض؟ وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون في الأرض بإعلام الله سبحانه وتعالى لهم؛ فهو الذي أعلمهم ذلك.

وهناك رأي آخر يقول: كان في الأرض جن، فأفسدوا، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، فقاس الملائكة بني آدم عليهم. وروى البغوى في تفسيره عن علي بن الحسين أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتًا وهو البيت المعمور، فأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتًا على

مثاله وقدره، فبنوه وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. ورُوي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عامٍ فكانوا يحجونه. فلما حجه آدم، قالت له الملائكة: برَّ حجُّك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

وذكر الإمام النووي رحمه الله في (تهذيب الأسماء واللغات) بناء الملائكة للكعبة، وعد ذلك أول بنائها.

وروى الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره في قوله تعالى: (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) عن ابن أبي حاتم - بسنده - أن رسول الله ﷺ قال: "دُحيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة".

وفي هذه النصوص السابقة ما يدل على عظمة البيت وعلى تقدم بنائه على أيدي ملائكة الله تعالى.

بناء آدم عليه السلام للكعبة

وشاء الله تعالى لبيته الحرام أن تتتابع عليه مراحل العمارة والبناء والتجديد منذ عهد الملائكة في أول بناء، ثم بعد ذلك ما قام به أبو البشر آدم عليه السلام.

فقد روى أبو الوليد الأزرقي في تاريخه - بسنده - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة قال: يا رب مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: "بخطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتًا فطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي". قال: فأقبل آدم يتخطى الأرض، فطويت له، وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة ولم تقع قدمه على شيء من

الأرض إلا صار عمرانًا وبركةً، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فكشف عن أس ثابت في الأرض السفلى، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وأنه بناه من خمسة أجبل من لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجودي وحراء، حتى استوى على وجه الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام.

ولا خلاف بين هذا الرأي الذي يرى أن آدم عليه السلام هو أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به وبين ما سبق أيضًا من أن الملائكة كانوا أول من بنى البيت إذ إن المراد ببناء آدم عليه السلام، بناؤه للبيت بعد أن كان بناء الملائكة قد مضى عليه الزمن وبعد دثوره وانتهائه، فلما جاء آدم وقام بتجديده لبنائه الذي اندثر كأنه بناه من جديد.

وقال الحافظ بن حجر العسقلاني في (فتح الباري) عن طريق عطاء قال: قال آدم: إني لا أسمع أصوات الملائكة. قال: "ابن لي بيتًا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء".

وقال ابن جرير في تفسيره في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾[1]

وقواعد البيت: أساسه. قال: ثم اختلف أهل التأويل في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل أهما أحدثا ذلك أم هي قواعد كانت له قبلهما؟

(١) الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

فقال قوم: هي قواعد البيت، كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك، ثم درس مكانه وتعفى أثره بعده، حتى بوأه الله إبراهيم عليه السلام فبناها.

ومما يدل على أنه سبق بناء آدم بناء الملائكة، وأنهم طافوا بالبيت من قبل؛ ما جاء عن طريق الإمام الشافعي عن محمد بن كعب القرظي، قال: حج آدم فلقيته الملائكة فقالوا: بر نسكك يا آدم، لقد حججنا قبلك بألفي عام. وقال الحافظ بن كثير: والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء.

وروى التقي الفاسي في (شفاء الغرام) عن البيهقي في (دلائل النبوة) - بسنده - عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: "بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتًا، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر، وحواء تنقل التراب، حتى أجابه الماء فنودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بناه أوحى الله إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت. ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح عليه السلام، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه".

وهكذا ترى أن بناء الملائكة كان بتوجيه من الله تعالى، وأن بناء آدم عليه السلام كان بوحي من الله تعالى إلى آدم عن طريق جبريل الأمين عليه السلام الذي بعثه الله تعالى إلى آدم ليبني البيت.

وأنه بعد أن أتم بناءه، أمره رب العزة سبحانه وتعالى أن يطوف به.

وفي هذا دلالة على عظمة البيت الحرام وعلى منزلته عند الله سبحانه وتعالى، وأن اتصال السماء به لم ينقطع أبدًا منذ بنته الملائكة المقربون إلى أن بناه آدم أبو البشر عليه السلام، بل إن رب العزة سبحانه وتعالى قد حرم مكة المكرمة يوم خلق السموات والأرض.

فاللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا وزد من زاره ممن حج أو اعتمر تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا.

بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام للبيت

واضحٌ أن مكان البيت قبل بناء إبراهيم ومعاونة إسماعيل عليهما السلام كان ربوة عالية تشرف على ما حوله، وكانت معروفة من قديم الزمان حتى جاء إبراهيم عليه السلام فرفع القواعد وبنى البيت.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: "بعث الله جبريل إلى آدم فأمره ببناء البيت فبناه آدم ثم أمره بالطواف به وقال له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وُضع للناس". ولكنَّ الإمام ابن كثير ضعَّف هذا الحديث، لأنه من مفردات ابن لهيعة، ولعله موقوف على عبدالله بن عمرو بن العاص.

والأرجح أن مكان البيت كان موجودًا، وأن السابقين من النبيين كانوا يحجون إلى مكانه ومحله وبقعته المعروفة وإن لم يكن هناك بناء.

يقول ابن كثير في البداية: ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك بهذا لقوله: (مكان البيت) فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موُضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وهذا الذي قاله ابن كثير لا يتنافى مع ما روي عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال: "يا أبا بكر أي واد هذا؟" قال: هذا وادي عسفان قال: "لقد مر به هود وصالح على بكرات حمر خطمهم الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق"[1].

(١) رواه أحمد.

ولا يتنافى القول بأن إبراهيم أول من بنى البيت مع مثل هذا الحديث؛ لأن المراد بالحديث السابق أنهم كانوا يحجون إلى محله ومكانه المعروف وإن لم يكن قد بُني بعد.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما كما أورده الإمام البخاري في صحيحه يجلي الموضوع أكثر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم بابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعها هناك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ وقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. فقالت: إذًا لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط، فانطلقت

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت: هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، ثم قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "فذلك سعي الناس بينهما".

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه. تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك - يعني جبريل - عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من زمزم - لكانت زمزم عيناً معيناً". قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإنَّ ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهم أو أهل بيت من جُرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فوجدوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس". فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب. فلما أدرك، زوجوه امرأةً منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج

إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة. فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؛ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: "فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك. قال: ذلك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم امرأة أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة. وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: "ولم يكن يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه".

قال: "فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه".

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة. وأثنت عليه، قالت: فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، أنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن

أبني ها هنا بيتًا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك؛ رفعا القواعد من البيت. فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ((رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ))[1] قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ((رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ))[2]

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾[3]

وعندما أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج قال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ فقال الله عز وجل: "أذن يا إبراهيم وعلي البلاغ". فوقف الخليل على جبل أبي قبيس وصار ينادي: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا. فأسمع من

(١،٢) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.
(٣) الآيات من ٢٦:٢٩ من سورة الحج.

في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك.

ومن ذلك الحين صار الحج فريضة إلى يوم القيامة.

الأطوار الأولى لبناء الكعبة

الطور الأول لبناء الكعبة المشرفة هو بناء الملائكة؛ فقد أورد الحافظ بن كثير في تفسيره اختلاف الناس في ذلك: فقيل: الملائكة قبل آدم. وروي هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين.

وروى البغوي - في تفسيره - عن علي بن الحسين أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتًا، وهو البيت المعمور، فأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتًا على مثاله وقدره، فبنوه، وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. وروي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام فكانوا يحجونه، فلما حجه آدم قالت له الملائكة: برَّ حجُّك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. وفي هذا ما يدل على أن الكعبة المشرفة كان أول بناء لها بناء الملائكة بأمر من رب العزة سبحانه وتعالى، وأن الطواف إنما هو طاعة شرعها الله سبحانه وتعالى من قديم الأزل.

وفي تقديم بناء الكعبة منذ هذا الزمن البعيد، وفي بناء الملائكة لها وبأمر من الله جل شأنه ما يدل على مكانتها وعلى عظمتها وعلى أهمية الطواف بها كعبادة لله تعالى وبتوجيه منه سبحانه وتعالى.

الطور الثاني هو بناء آدم عليه السلام للكعبة المشرفة زادها الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا.

وهذا الطور كان بعد أن مر على بناء الملائكة زمن طويل؛ حيث اندثر البناء ولم يعد من الظهور والوضوح فيه ما ينبىء بوجوده، حتى قال البعض: إن بناء آدم هو أول طور لبناء الكعبة المشرفة.

روى أبو الوليد الأزرقي في تاريخه قال: حدثني جدي عن سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة قال: يا رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: "بخطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتًا فطف به واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي"، قال: فأقبل آدم يتخطى الأرض فطويت له، وقبضت له المفاوز فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة، ولم تقع قدمه على شيء من الأرض إلا صار عمرانًا وبركةً، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض، فكشف عن أس ثابت في الأرض السفلى، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وأنه بناه من خمسة أجبل من لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجودي وحراء حتى استوى على وجه الأرض.

الطور الثالث وهو بناء شيث بن آدم عليه السلام، روى الأزرقي - بسنده - إلى وهب بن منبه قال: لما رفعت الخيمة التي منح الله بها آدم عليه السلام من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت، ومات آدم عليه السلام، فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتًا بالطين والحجارة، فلم يزل معمورًا يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وغير مكانه حتى بوأ لإبراهيم.

وهذه الأخبار السالفة أخبار تاريخية ثبوت صحتها ليس فيه إخلال بشيء من أحكام الإسلام، ولا يتوقف على عدم ثبوت صحتها أن يقال إن الكعبة غير موجودة،

فالكعبة موجودة والحمد لله ثابتة بالتواتر والرؤية والمشاهدة من يوم أن خلق الله سبحانه وتعالى السموات والأرض، فقد جاء في الحديث الصحيح: "إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض"[1]، وما حرمت مكة إلا بسبب وجود الكعبة المشرفة، فهي إذن موجودة من قديم الأزل، وأما حديث: "إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة"[2] فلا يدل على أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بناها، بل يدل على أنه أظهر حرمتها بعد أن كانت قد نسيت أو كادت؛ لأنها كانت محرمةً، فلما رفع البيت المعمور من الطوفان، اندرست حرمتها ونسيت فأظهر الله ذلك على يد إبراهيم عليه السلام.

الطور الرابع لبناء الكعبة المشرفة

بناء إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[3]

في هذا التوجيه الرباني الحكيم ما يوضح أن الله تعالى جعل الكعبة المشرفة مثابةً، أي مرجعًا يثوب الناس إليه، أي يرجعون إليه مرةً بعد أخرى ويأتون إليه من كل فجٍ عميق، وجعل البيت مكانًا آمنًا يأمن الناس فيه؛ لأنه سبحانه وتعالى غرس في القلوب تعظيمه. وأمر رب العزة سبحانه وتعالى الناس أن يتخذوا من مقام إبراهيم عليه السلام مصلى، والمراد بالمقام هو المكان الذي كان يقوم عليه

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

سيدنا إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة وهو عبارة عن الحجر الذي كان يقف عليه، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يصلوا عنده، وأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام بأن يطهرا البيت من الأوثان التي كانت فيه ومن الأرجاس للطائفين حوله والمعتكفين به والمصلين فيه.

وقد توجه سيدنا إبراهيم عليه السلام بالدعاء إلى ربه سبحانه وتعالى أن يجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، يكون أهله في أمن واستقرار وأمان وسلام وطمأنينة، وأن يرزق الله تعالى أهل البيت وسكان مكة المكرمة من أنواع الثمرات حتى يمكثوا على إيمانهم وطاعتهم وعبادتهم، وخص بهذه الدعوة المؤمنين بالله واليوم الآخر، فجعل دعوته خاصة بالمؤمنين فحسب، فأجابه رب العزة سبحانه وتعالى قائلاً له جوابًا على دعائه الذي خص به المؤمنين فقط:

((قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ))[1]

أي أنه سبحانه يرزق أيضا من كفر كما يرزق من آمن؛ إذ كيف يخلق خلقًا ولا يرزقهم؟ إنه يرزق الكافر في الدنيا متاعا قليلا وذلك مدة مكثه فيها وحياته على ظهر الأرض ثم يكون بعد ذلك مصيره إلى النار في الآخرة، إن الرزق في الدنيا يشمل المؤمن والكافر.

قال سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[2]

(١) من الآية ١٢٦ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١٢٦ من سورة البقرة.

وكان هنا الطور الرابع لبناء الكعبة المشرفة؛ حيث كان يرفع سيدنا إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت وإسماعيل. فقد قاما بوضع أساس البيت ورفع بنائه ضارعين إلى ربهما قائلين: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال سبحانه:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾(١)

وقد بوأ الله تعالى لإبراهيم عليه السلام مكان البيت الحرام، وأمره بتوحيده، ونهاه عن الشرك، وأمره بتطهير بيته للطائفين بالكعبة والمعتكفين بالبيت والمصلين هناك فقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾(٢)

فأمر الله إبراهيم عليه السلام أن يطهر البيت من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة والاعتكاف وسائر العبادات. والمراد بالطائفين هم الذين يطوفون حول الكعبة المشرفة، والمراد بالقائمين: هم المصلون. فقد عبر القرآن الكريم عن الصلاة بأعظم أركانها وهو القيام، والركوع والسجود. إنه الإعداد الذي أرادته مشيئة الله سبحانه وتعالى منذ أول لحظة بوأ الله فيها لإبراهيم عليه

(١) الآيتان ١٢٧ و١٢٨ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٦ من سورة البقرة.

السلام مكان البيت الحرام، موجهًا إياه إلى التوحيد ونبذ الشرك، وآمرًا له أن يطهر البيت لضيوف الرحمن وللطائفين والقائمين والركع السجود.

الطور الخامس للبيت وما بعده

من بناء العمالقة وغيرهم

وبعد بناء إبراهيم عليه السلام للبيت، بنته العمالقة. وفيما رواه الأزرقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في خبر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة: ثم انهدم البيت فبنته العمالقة.

البناء السادس:

هو بناء جرهم للكعبة المشرفة؛ فقد كان السيل يدخل من أعلى مكة، فانهدم البيت، فأعادته جرهم على بناء إبراهيم عليه السلام وجعلوا له مصراعين وقفلاً.

البناء السابع:

هو بناء قصي بن كلاب، فإنه لما ولي أمر البيت، جمع نفقته ثم هدم الكعبة، فبناها بنيانًا لم يبن أحد ممن بناها قبله مثله، وجعل وهو يبني يقول:

أبني لقومي بيت رفعتها ∴ وليس أهل وراثها بعدي
بنيانها وتمامها وحجابها ∴ بيد الإله وليس بالعبد

وبناها على خمسة وعشرين ذراعًا. وقال الماوردي في (الأحكام السلطانية): أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم قصي بن كلاب وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل.

البناء الثامن:

هو بناء عبدالمطلب جد النبي ﷺ، فقد بنى الكعبة بعد قصي.

ولعل هذا البناء فيه شيء من الوهم، لكن ورد في كتاب (شفاء الغرام) حيث يقول التَّقيُّ الفارسي: ووجدت بخط عبيد الله بن عبدالملك المرجاني أن عبدالمطلب جد النبي ﷺ بنى الكعبة بعد قصي وقبل بناء قريش، ولم أر ذلك لغيره.

البناء التاسع:

هو بناء قريش، وقد راعو عند بنائها أن يكون من كسب طيب، فلا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وعندما أرادوا تجديد بناء الكعبة المشرفة، ورأوا أن يهدموا البناء القديم ليقيموا الجديد، تهيبوا وخافوا أن يقتربوا من البناء أو أن يهدموه وذلك لما للكعبة المشرفة من مكانة وقدسية في نفوسهم، فتوقفوا، فلما رآهم الوليد بن المغيرة قد توقفوا وخافوا، قال لهم: أنا أبدؤكم في هدمها. فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين. فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب، لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء، فقد رضي الله صنعنا فهدمنا. فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم - أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضاً. واجتمعت قبائل قريش وجمعت الحجارة لبنائها، وكانت كل قبيلة حريصة على أن تنال شرف بناء الكعبة المشرفة، وأن تتشرف بالإسهام في بنائها، فكانت كل قبيلة تجمع حجارة على حدة، ثم بنوها وارتفع البناء حتى بلغ موضع الركن، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فَسُمُّوا لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو

خمسا ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم - وكان عامئذٍ أسن قريش كلها - قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال رسول الله ﷺ: "هَلُمَّ لي ثوباً"، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً"، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه. هذا هو خبر وضع الحجر الأسود في ركنه كما أورده ابن اسحاق، وهو يدل علي إلهام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وشدة ذكائه، وعظم حله للمشكلات. لقد كادت تقع بين القوم فتنة وحرب لولا أن تداركهم الله تعالى برسوله صلوات الله وسلامه عليه وكان هذا قبل مبعثه، دلالة على أن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

بناء عبدالله بن الزبير للكعبة

لما حدث للكعبة ما حدث من إحراق في عهد يزيد بن معاوية، وكان الناس لا يجرءون على نقض بنائها، نظر عبدالله بن الزبير إلى حال البيت وإلى أن الذي جعل رسول الله ﷺ لم يجدد البناء ولم يهدم البيت هو أن الناس كانوا حديثي عهد بجاهلية.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: "يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أُخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم"[١].

وعندما استشار عبدالله بن الزبير الناس في هدم الكعبة، وإعادة بنائها من جديد، خاف الناس أن يغيروا شيئًا منها، وخافوا إذا ما هدموا منها شيئًا أن تصيبهم شدة أو عذاب من الله، حتى توقفوا ورأوا أن يكتفوا بالترميم والإصلاح وألا ينقضوا بيتًا أسلم الناس عليه، وبعث عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه.

وتطلع عبدالله بن الزبير رضي الله عنه إلى ما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يريد أن يفعله ولم يمنعه من فعله إلا حداثة عهد الناس بالجاهلية وإلا مخافة الفتنة. تطلع عبدالله بن الزبير إلى أن رسول الله ﷺ كان يود أن يدخل في بناء البيت من الحجر قدرًا، وأن يكون للبيت باب يدخل الناس منه، وآخر يخرجون منه، وأن من أهم الأسباب كذلك أن النفقة كانت قد قصرت. فلما رأى عبدالله بن الزبير أنه يجد النفقة وأنه لا يخاف الناس، أعاد بناء البيت.

وقد وضح هذا كله حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه بالسند المتصل: عن عطاء رضي الله عنه قال: لما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية حين غزاه أهل

---

(١) رواه البخاري.

الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرِّئهم ويحزبهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال:

يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها - أي أهدمها - ثم أبني بناءها؟ أو أصلح ما وهي منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فرق - أي ظهر - لي رأى فيها، أرى أن تصلح ما وهي منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه وأحجارًا أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجدد فكيف ببيت ربكم، إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري. فلما مضت الثلاث، أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة تقول: إن النبي ﷺ قال: "لولا أن الناس حديث عهد بكفر، وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت لها بابًا يدخل الناس منه وبابًا يخرجون منه". قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أسًا نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا، فلما زاد فيه استقصر، فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه. وقد روي أنه لما أجمع عبدالله بن الزبير على هدم الكعبة لإعادة بنائها خرج كثير من أهل مكة إلى منى مخافة أن يصيبهم عذاب.

وقد أعاد ابن الزبير رضي الله عنه بناء الكعبة سنة خمس وستين من الهجرة النبوية (٦٥هـ)، وبناها على قواعد إبراهيم، وقيل كان في سنة أربع وستين.

ولما فرغ من بناء الكعبة طيب جوفها بالطيب من العنبر والمسك، وطيب جدارها بالمسك من الخارج من أعلاها إلى أسفلها، وسترها بالديباج، وكان الفراغ من عمارة البيت في السابع عشر من رجب، وأمر الناس أن يعتمروا من التنعيم شكرًا لله عز وجل.

بناء الحجاج ثم السلطان مراد خان للبيت

بعد موت عبدالله بن الزبير، كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، وأحدث فيها بابًا آخر، واستأذنه في رد ذلك على ما كان عليه في الجاهلية. فكتب إليه عبدالملك بأن يسد الباب الغربي للكعبة وأن يهدم ما زاد فيها ابن الزبير من الحجر، ففعل الحجاج ذلك، وترك الباقي منها على ما كان عليه من بناء عبدالله بن الزبير، وهذا في سنة أربعٍ وسبعين من الهجرة وقيل في سنة ثلاث وسبعين. وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرح صحيح مسلم: وقد ذكروا أن هارون الرشيد سأل مالك بن أنس عن هدمها وردّها إلى بناء ابن الزبير للأحاديث المذكورة في ذلك، فقال مالك: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك، لا يشاء ملك إلا نقضه وبناه، فتذهب هيبته من صدور الناس.

وأما بناء السلطان مراد خان للبيت، فقد كان في سنة أربعين وألف من الهجرة (١٠٤٠هـ). واستغرقت عمارة البيت ستة أشهر ونصف شهر، وهكذا بذل ولاة الأمر عبر عصور التاريخ عناية فائقة في عمارة الكعبة المشرفة في القديم وفي الحديث. وروى الحافظ ابن حجر في الفتح عن عباس بن أبي ربيعة المخزومي عن النبي ﷺ أنه قال: "هذه الأمة لا تزال بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا ضيَّعُوا ذلك هلكوا"[١].

(١) رواه أحمد وابن ماجه.

وقال المؤرخ الحجازي الأستاذ حسين عبدالله باسلامة - رحمه الله تعالى -:
وبهذه العمارة انتهت عمارة الكعبة المعظمة من عهد بناء الملائكة إلى العصر الحاضر، حيث كانت عمارة السلطان مراد خان سنة أربعين وألف من الهجرة هي الأخيرة إلى يومنا هذا.

أما ما صُرِف على عمارة الكعبة المعظمة الأخيرة فلم أقف على بيانه بالضبط، حتى إن الذي ورد في كتب التاريخ التي وقفت عليها هو بيان الأدوات والآلات مثل الحديد والرصاص والجيش وما في معنى ذلك. ولم يذكر أحد من المؤرخين قيمة، وقد ذكر اللواء المصري محمد مختار باشا في كتابه (التوفيقات الإلهية) أنه أرسل من مصر جميع ما يلزم[1].

وستتابع فيما يأتي المعلومات عن عمارة الكعبة المعظمة في العهد السعودي متتبعين العصر الحديث، وما حدث فيه من أكبر توسعة للحرمين، وأعظم إنجاز حضاري ومعمار إسلامي في تاريخ الدنيا بأسرها مما لا نظير له ومما يشهد بعظمة المشاعر المقدسة والمقدسات الإسلامية، وما لها من مكانة وقدسية في قلوب ولاة الأمر جيلاً بعد جيل، حتى تسلم الأمانة هذا العهد السعودي الحافل بالإنجاز والإخلاص والبذل والجهود التي تذكر فتشكر هو ما سنتابع الحديث عنه وبالله التوفيق.

عمارة الكعبة في العهد السعودي

سبق أن وضحنا عمارة البيت الحرام في العهود السابقة الماضية، وأنها كانت تلقى عناية في كل عصر وفي كل جيلٍ من الأجيال.. إلى أن مرت بهذه المنطقة وتلك البلاد فترة من الزمان سادها الاضطراب والفتن، والقلاقل والمحن.

---

(١) كتاب تاريخ الكعبة للأستاذ حسين عبد الله باسلامة.

وتناقص عدد الحجيج، بسبب ما كان الناس يتعرضون له من مخاوف الطريق. ولا شك أن أمن الطريق من عناصر الاستطاعة في الحج، قال الله تعالى:

((وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ)) [1]

ومن الاستطاعة أن يتمكن ضيوف الرحمن من الذهاب والإياب في طريقهم في أمن وسلام. ولم يقف الأمر عند حد أن الفتن والمخاوف كانت منتشرة، بل إن عمارة المسجد الحرام بل والمسجد النبوي كانت قد توقفت. ولم يطل الوقت على هذا، فقد قيض رب البيت من نهض بهذه الأمانة، فإن للبيت رباً يحميه، فجاء المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، فأعاد للمنطقة أمنها المفقود، وسلامها المنشود، فأصبح الناس يغدون ويروحون، ويفدون إلى البيت من كل فجٍ عميقٍ، ليؤدوا مناسك الحج إلى بيت الله الحرام، وسائر المشاعر في أمنٍ وسلامٍ. وازدادت أعداد الحجاج والعُمَّار، والوافدين والزوار، يأتون من كل طريق يمكنهم أن يسلكوه، من البر أو من البحر. فلما ازدادت أعداد الحجاج بسبب أمن الطريق، وازدحم الناس وجاءوا من كل فج عميق، دعت الحاجة إلى توسعة للحرمين وزيادة في المباني وفي المنشآت المقدسة؛ حتى يستطيع الناس أن يؤدوا مناسكهم على أتم حال وأكمل صوره، فأشرف الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى بنفسه على هذه التوسعة الكبرى ورعاها كل الرعاية، وأعطاها كل العناية، لقدسية المكان ولأهمية هذه المقدسات، وما تمثله من مجد ديني عظيم، وشهدت البقعة المباركة نهضة عمرانية كبرى، في أروقة المسجد الحرام، وفي سائر الجوانب. وفي عام أربعة وخمسين وثلاثمائة وألفٍ من الهجرة (١٣٥٤هـ)، أمر الملك عبد العزيز

(١) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

رحمه الله تعالى بوضع خطة للعمارة والإصلاح في سائر أنحاء المسجد الحرام، وكان هذا التوجيه بمثابة إطلاق الشرارة الأولى لأكبر انطلاقة في تاريخ المعمار الإسلامي، ومن يومها والتوسعة تزداد عاما بعد عام، وأزيلت كثير من المنشآت السكنية وقامت الدولة السعودية بتعويض أهلها. وبني المسعى من طابقين وجعل له ستة عشر بابًا، كل ذلك للتيسير علي حجاج بيت الله، ولتسهيل أداء المناسك لهم على أحسن وجه.

وتوالت الجهود الموفقة في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله تعالى وزادت في عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، واستمرت الجهود الكبرى في خدمة الحرمين الشريفين. واهتمت الدولة السعودية عبر عصورها وعهودها بعمارة المسجد الحرام وبتوسعة المسجد الحرام؛ لاستيعاب أكبر الأعداد التي تدفقت كل موسم حجٍّ على المشاعر المقدسة. وازدادت الأعداد عاما بعد عام، وظلت التوسعة والجهود المبذولة من قبل المسئولين تزداد في كل عام؛ بحيث إذا جاء الإنسان إلى هذه البقاع المطهرة، يرى في كل عامٍ شيئًا جديدًا.

حتى جاء عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، فزادت التوسعة، بشكل لم يسبق له مثيل، وزادت الجهود، خاصةً أن أعداد الحجاج تتكاثر ولا تقل، وتتزايد في كل عام، وحرصًا من الدولة على إجابة رغبة النفوس المؤمنة المتعطشة إلى الحج والعمرة، واجهت الدولة السعودية هذه العاطفة الدينية بمثلها خدمةً وبذلاً وتفانيًا في سبيل النهوض بالعمارة الإسلامية والإنجاز الحضاري الكبير الذي يليق بأول بيت وُضِعَ للناس.

الحرم المكي في العهد السعودي

مرت على الحرم المكي عهود كثيرة منذ إنشائه إلى يومنا هذا، وفي كل عهد من العهود كان يشهد توسعات وإنجازات تذكر فتشكر.

ومر زمان ليس بالقليل على الطرق المؤدية إلى البقاع المطهرة، كان الحجاج والعمار يعانون من الخوف من الطريق، ويعانون من قطاع الطريق. والإسلام عندما فرض الحج فرضه على المستطيع، والاستطاعة ليست محصورة ـ فقط ـ في الاستطاعة الصحية والبدنية، ولا في الاستطاعة المالية فقط. بل إن الاستطاعة تشمل أيضا استطاعة الوصول في أمن وسلام بحيث لا يخشى الحاج على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه من الطريق.

وشاء الله تعالى أن تقضي المسئولية بالحكم إلى البيت السعودي، فنهض مُوَحِّد الجزيرة والعاهل السعودي الأول الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء وتطبيق الحدود. فقامت الدولة على توحيد الله تعالى، وعلى تطبيق التعاليم الإسلامية الغراء، فأمَّن الطريق كما أمَّن البلاد والعباد، ونهض نهضة كبرى في خدمة الحرمين وتوارث المسئولون من بعده ملكًا بعد ملك أمانة الحكم ومسئولية الرسالة، فنهضوا بها على أكمل وجه. ويشهد الحرم المكي في كل عهد إنجازًا جديداً يدل على العناية الفائقة وعلى الإخلاص الأكيد، والحب الصادق لبيت الله الحرام، حتى أفضت المسئولية الآن إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، وولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبد العزيز، فرأينا إنجازًا حضاريًا يجل عن النظر، ورأينا نهضة كبرى في كل ميدان من ميادين العمل والثقافة والعلم والحضارة. وكان نصيب الحرم المكي من ذلك أوفر نصيب في عمارته، وفي التوسعات العديدة فيه، وفي نظافته وتوفير دورات المياه، وفي إنارته وفي نظمه الإدارية، وفي قيام الثقافة الإسلامية بين جنباته من العلماء والدعاة، وفي توفير زمزم وتنظيم الطواف والسعي، وفي النظافة المستمرة، وفي توجيه الحجاج والعمار، وفي الإدارات الدينية بالحرم الشريف. وكلها إنجازات تليق بقدسية الحرم الشريف، وتليق

بالحجاج والعمار الذين جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله، وليؤدوا مناسكهم في أمان وهدوء، وفي إتقان وراحة، فشهد الحرم المكي إنجازات حضارية وتوسعات عصرية تليق بمنزلته الدينية.

توسعة الحرمين في العهد السعودي

لقد كان أداء فريضة الحج تحفه كثير من الأخطار، بسبب عدم أمن بعض الطرق، حيث كانت بعض الفتن التي تسري. وصَعُبَ على الحجاج في غدوهم ورواحهم، وذهابهم وإيابهم أن يسيروا في أمان وسلام، وأخذوا يتناقصون بسبب عدم توفر الأمن عامًا بعد عام.

ولكن هذه الأحوال لم تستمر طويلاً، حيث قيض الله إلى هذه البلاد رجلاً مؤمنًا مخلصًا لدينه وأمته، استطاع أن ينشر الأمن في هذه البقاع وأن يوحد بينها ويقيم المملكة العربية السعودية، إنه الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود، الذي نشر الأمن في ربوع البلاد وأمّن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وزاد الإقبال على الحج والعمرة، وازدحمت البقاع المطهرة بالعاكفين والحاجين والمعتمرين. وقابل هذه الزيادة المطردة توسعًا في وطن الحرمين الشريفين، وفي المدينتين المقدستين حتى يمكن استيعاب الوافدين من كل فجٍّ عميق، فازداد العمران والتوسع حول الحرمين الشريفين.

وفي عام أربع وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (١٣٥٤هـ)، أمر الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى بوضع خطة لعمارة الحرمين الشريفين، وأشرف عليها، وأكملها أبناؤه البررة من بعده، وأخذت العمارة في توسع وازدياد في عهود تالية لدى الملك فيصل بن عبد العزيز، والملك خالد بن عبد العزيز. وظلت التوسعات والإصلاحات تتنامى؛ لاستيعاب الأعداد الكثيرة الوافدة على الحرمين الشريفين..

وظلت التوسعات في زيادة حتى كانت التوسعة الحالية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، حيث كانت عمارة الحرمين الشريفين وزيادة التوسعة فيهما لمواجهة التزايد المطرد حيث فاق عدد الحجاج والوافدين المليونين، فأخذت التوسعة الكبرى تأخذ طريقها إلى الحرمين الشريفين وإلى المكان المحيط بكل حرم. وبالنظر إلى مقالة خادم الحرمين الشريفين في هذا المقام، نستشعر روح الإخلاص حيث قال: أؤكد لكم أيها الإخوة أن كل شيءٍ أستطيع تقديمه للحرمين الشريفين ولمكة مهبط الوحي والمدينة مشع نور الرسالة لن أتردد لحظةً في المبادرة إلى تقديمه. وسوف لا أدخر وسعًا بالجهد والمال في سبيل استكمال هذا العمل الإسلامي الحضاري التاريخي الذي وهبت نفسي في سبيل تحقيقه، وأحمد الله أن شرفني وإخواني وأهل هذا البلد بهذا الفضل العظيم.

وفي صفر عام تسعٍ وأربعمائةٍ وألفٍ من الهجرة (١٤٠٩هـ)، وضع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حجر الأساس لتوسعة عمارة الحرم المكي الشريف. ونهض العمل على قدم وساق، وانطلقت الجهود الموفقة لتشمل المكان والإنارة والمباني والأدوار وتجهيز الساحات الخارجية والإنشاءات الهندسية المتقدمة، فظهر أروع فن معماري إسلامي عالمي لا نظير له على وجه البسيطة في السطح والقباب والمآذن والتكييف القوي والنظافة الدائمة والرعاية المتقنة والصيانة المستمرة.. كل ذلك خدمة للحرمين الشريفين ولضيوف الرحمن وزوار البيت والحرمين من كافة أنحاء العالم، حتى يؤدوا شعائرهم في راحة وأمان، وهدوء واطمئنان، فبارك الله جهود المخلصين والقائمين على أمر هذه العمارة الساهرين على أمنها وسلامتها.

التوسع في عهد خادم الحرمين

تحدثنا فيما سبق عن الأطوار التي مر بها الحرمان الشريفان في توسعاتهما حتى وصلنا إلى العهد السعودي والذي تتابعت فيه إنجازات كبيرة وعناية فائقة، وتوسعات متتابعة منذ عهد الملك عبد العزيز فالملك سعود فالملك فيصل فالملك خالد عليهم جميعًا رحمة الله ورضوانه جزاء ما قدموا من جهودٍ تذكر فتشكر في خدمة الحرمين الشريفين.. ووصلنا في الحديث إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، متابعين الحديث عن الإنجازات الحضارية، وما وصل إليه الحرم المكي والحرم النبوي من أعظم إنجاز حضاري على وجه الأرض، فما رأينا في التاريخ ولا في العصر الحديث توسعات وإنجازات في مجال العمارة الإسلامية، والحضارة العربية، كما نرى في الحرمين الشريفين الآن.

لقد قيض الله تعالى لبيته الحرام، ولمسجد نبيه عليه الصلاة والسلام، رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، شمّروا عن ساعد الجد، وبذلوا أقصَى ما في الوسع الإنساني في خدمة الحرمين الشريفين، وتفانوا في خدمتهما، مما يشهد بأن الله تعالى قد قيض أهل الخير والبر، وأقامهم ليحرسوا دين الله، وليخدموا المقدسات الإسلامية. وقد أحسَّ خادم الحرمين الشريفين بهذه النعمة التي أولاه الله إياها، فكان هذا اللقب الدال على صدق الجهود المبذولة، والخطى المخلصة في خدمة الحرمين والقيام على عمارتهما وتجديدهما في كل وقت وحين؛ لدرجة أن الذي يأتي إلى المملكة العربية السعودية ويزور الحرمين، ثم يأتي بعد ذلك في العام المقبل يرى تجديدات وأمورًا لم تكن موجودةً في العام الماضي، ذلك أن المسئولين يتابعون باستمرار اطراد الأعداد، وأن الوفود في ازدياد، وأنه كلما زادت الأعداد زادت الخدمات، واحتاج الحال إلى تحديث وتطوير، وإلى زيادة في كل عام.

وأعداد وفود الرحمن تزداد في كل عام ولا تنقص، وأعداد العمار والحجاج والزوار تكثر في كل عام، ولذا كان لا بد من هذه التوسعات التي جاءت بصورة حضارية كبرى، لها أكبر الأثر في راحة ضيوف الرحمن، وتمكنهم من أداء مناسكهم في ارتياح، وغبطة وانشراح. لقد نظرت المملكة العربية السعودية إلى خدمة الحرمين الشريفين على أنها من الدين ومن العبادة، ومن منطلق المسئولية، فأولوا الحرمين عناية كبرى كفلت الراحة للحجاج والمعتمرين والزائرين، وكانت هذه الإنجازات الضخمة أكبر شاهد تاريخي على عظمة هذا العهد السعودي، وعلى همة القائمين على الأمر الذين أخلصوا فيه لله تعالى، وتنافسوا في تقديم الراحة للمسلمين، ورأوا أن خدمة الحجيج عبادة وقربى إلى الله سبحانه وتعالى، فأشرقت تلك الإنجازات والتجديدات التي لا تقع تحت حصر، والتي سعد المسلمون بها. ولم تقتصر التوسعات والتجديدات على الحرمين فحسب، بل شملت جميع أماكن المشاعر المقدسة، ومواقع الحجاج التي يذهبون إليها في أداء مناسكهم مثل عرفات، حيث شُجّرت أرضها وجُدّدت معالمها بعلامات بارزة ليعرف الحاج أنه في أرض عرفات، وكذلك بالنسبة إلى المشعر الحرام - المزدلفة - وأرض منى، وأماكن الجمرات، نرى في كل هذه المواقع خدمات كثيرة، وجهوداً تبذل من أجل خدمة الحجاج الذين يَفِدُون إليها في كل عام.

وإنها لجهود دالة على إخلاص أولي الأمر، الذين يحسون بعظم المسئولية، ويبذلون الجهود الموفقة؛ لأنهم على يقين أنها مدخرة لهم في صفحات حسناتهم، وأنهم بهذا يرضون ربهم سبحانه وتعالى.

إن فريضة الحج التي اختار الله تعالى لها هذه البقاع المطهرة لتؤدَّى فيها هي فريضة هامة وركن من أركان الإسلام، يأتي الناس لأدائها بشوق جارف، وعاطفة جياشة، يقصدون أول بيت وضع للناس:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]

عمارة المقدسات في العهد السعودي

عهد خادم الحرمين

بعد أن تحدثنا عن مراحل عمارة البيت الحرام عبر عصور التاريخ حتى وصلنا فيما سبق إلى عهد الدولة السعودية وما قدمه الملك عبد العزيز من جهود تذكر فتشكر، وما قدمه من بعده الملك فيصل بن عبد العزيز والملك خالد بن عبد العزيز من جهود وبذل وعطاء في سبيل خدمة أطهر البقاع على ظهر الأرض، نتحدث عن بعض جوانب العمارة في عهد خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز، حيث إن عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي وسائر بقاع المشاعر قد أخذت مرحلة جديدة في تحديثها وتطويرها وتوسعتها؛ لأن الأعداد من الحجاج والعمار قد زادت زيادة مطردة، وفي كل عام يزداد الحجاج والعمار ولا يتناقصون، حتى وصل عددهم إلى أكثر من مليونين، فكان لا بد من تهيئة هذه البقاع الكريمة وتوسعتها حتى لا يُحرم أحد من التمتع بتلك البقاع الطاهرة، وحتى يستطيع الحجاج أن يؤدوا مناسكهم على أكمل وجه، وبصورة شرعية مقبولة دون معاناة، فوضعت استراتيجية للتوسعات المستقبلية، التي شملت

---

(١) الآيتان ٩٦ و ٩٧ من سورة آل عمران.

المسجد الحرام والمسجد النبوي وأماكن المشاعر والمناسك. وقد أعلن خادم الحرمين الشريفين همته العالية، ورسالته السامية، وذلك في قوله: "أؤكد لكم أيها الإخوة أن كل شيء أستطيع تقديمه للحرمين الشريفين، ولمكة مهبط الوحي والمدينة مشع نور الرسالة لن أتردد لحظة في المبادرة إلى تقديمه، وسوف لا أدخر وسعًا بالجهد والمال في سبيل استكمال هذا العمل الإسلامي الحضاري التاريخي الذي وهبت نفسي في سبيل تحقيقه، وأحمد الله أن شرفني وإخواني وأهل هذا البلد بهذا الفضل العظيم".

والحق يقال، فمنذ وضع خادم الحرمين الشريفين حجر الأساس لتوسعة الحرم المكي الشريف، وانطلقت مسيرة الإصلاح والتعمير والازدهار، إنجازات كبرى في كل ميدان من ميادين المعمار الإسلامي العظيم. إننا نشاهد منذ هذه التوسعة الحضارية الكبرى، إنجازات في مباني الحرم وفي أروقته، وفي تهيئته للطرق المؤدية إليه، وفي إعداد الساحات المحيطة بالحرم وبالمسعى، كما كان من ضمن الإنجازات تلطيف الهواء بأجهزة حديثة وكثيرة، إلى غير ذلك من الإنجازات العظيمة التي تشهد بها ساحات المشاعر المقدسة. وهذا العهد يشهد أعظم إنجاز حضاري وإسلامي يليق بمكانة الحرمين وقدسيتهما.

ولئن كان السلف قد قدموا في خدمة بيت الله ما استطاعوا فإن الخلف من بعدهم ساروا علي المنهاج، وزادوا وأشادوا مواجهين تزايد الأعداد من القاصدين، والحاجين والمعتمرين موقنين أنهم بهذه الجهود يخدمون ضيوف الرحمن ويمكنون لهم أداء مناسكهم على أكمل وجه، ويحافظون على أشرف بقعة

اختارها الوحي لتكون مهبط الرسالة، وخصها رب العزة سبحانه وتعالى بأن يكون بيته فيها، وأن يكون الحج إليها:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]

(١) الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

الفصل الثالث :

من معالم البيت الحرام : الحجر الأسود

يتناول هذا الجزء الموضوعات التالية :

- **الحجر الأسود: من معالم البيت**
- **الحجر الأسود**
- **وضع الحجر الأسود**

الحجر الأسود: من معالم البيت

من معالم البيت الحرام المباركة: الحجر الأسود، فله منزلة عظيمة في الإسلام، فيسن استلامه وتقبيله، ومنه يبدأ الطواف وإليه ينتهي. ومن شروط الطواف: طهارة الثوب والبدن والمكان وستر العورة والوضوء، فالطواف بالبيت كالصلاة ولكن أباح الله تعالى فيه الكلام، وينبغي على من يطوف أن يضطبع قبل ابتداء الطواف، وذلك بأن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى، ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر ولا يلبي أثناء الطواف وإنما يدعو الله.

فإذا فرغ من الاضطباع، فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلاً ليكون الحجر قدامه، فيمر بجميع بدنه في ابتداء طوافه بجميع الحجر، وأن يقول في ابتداء طوافه قبل مجاوزة الحجر: بسم الله والله أكبر، اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ووفاءً بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد ﷺ.

وقد ورد في شأن الحجر الأسود أنه قد نزل أبيض بل أشد بياضًا من اللبن، ولكن خطايا بني آدم هي التي سودته، وذلك كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: "نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم"[١].

وعن سالم أن أباه حدثه قال: قبّل عمر بن الخطاب الحجر، ثم قال: أما والله لقد علمت أنك حجر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك[٢]. وفي رواية أخرى قال عمر: والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع. ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك.

---

(١) رواه الترمذي وصححه وله طريق أخرى في صحيح ابن خزيمة ورواه النسائي.

(٢) رواه مسلم.

وإنما قال عمر رضي الله عنه ذلك لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخاف عمر رضي الله عنه أن يفهم بعض الناس معنى استلام الحجر الأسود على غير معناه الصحيح ويظن البعض أنه من قبيل تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر رضي الله عنه أن يوضح للناس حقيقة الأمر، وأن يبين لهم وجه الصواب، وأن استلام الحجر الأسود ما هو إلا اتباع رسول الله ﷺ، لا لأن الحجر ينفع أو يضر بذاته، كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان، فهذا حث من سيدنا عمر رضي الله عنه وتوجيه إلى الاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام في تقبيل الحجر الأسود ولولا الاقتداء به ما فعله. والحكمة من تقبيله: هي اختبار للمسلم ليعلم بالمشاهدة طاعة من يطيع، وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أُمر بالسجود لآدم، فلم يكن السجود سجود عبادة بل لطاعة الأمر الإلهي فحسب.

وروي أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، ومعنى أنه يمين الله في الأرض أن من صافحه في الأرض كان له عند الله عهد، وجرت العادة بأن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريدون موالاته واختصاصه به، فخاطبهم بما يعهدونه.

وقال الطبري: في بقائه أسود عبرة لمن له بصيرة، فإن الخطايا إذا أثرت في الحجر الصلد، فتأثيرها في القلب أشد.

وإنما اخُتص الحجر الأسود بالتقبيل دون غيره من سائر الأركان الأخرى، لأن للركن الأول فضيلتين هما: كون الحجر الأسود فيه، وكونه على قواعد إبراهيم. وأما الركن الثاني ففيه فضيلة واحدة هي كونه على قواعد إبراهيم، وليس للأركان الأخرى شيء من ذلك. فلهذا، لا يقبل الركن اليماني وإنما يستلم ولا يقبل الركنان الآخران ولا يستلمان وهذا هو رأي الجمهور، فيستحب تقبيل

الحجر الأسود في الطواف بعد استلامه، إن قدر الإنسان، ولم يترتب على ذلك ضررٌ أو إضرار بالناس، وإلا فيكتفى بالإشارة إليه.

الحجر الأسود

من أركان البيت الحرام ركن الحجر الأسود الذي يبدأ منه الطواف وينتهي إليه. عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "الحجر الأسود من الجنة، وكان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك"(١).

وكان رسول الله ﷺ يَرمُل من الحجر إلى أن ينتهي إليه ثلاث مرات، والرمل سير سريع بين الجري والمشي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ رمل من الحجر الأسود حتى انتهى إليه ثلاثة أطواف(٢). وكانت الهرولة تظهر للمشركين أن في المسلمين قوة، وفيها رد عليهم وعلى ما أشاعوه أن بالمسلمين ضعفاً. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله ﷺ قال أهل مكة: نرى أصحاب محمد جوعى هزلى. قال: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرولوا ليروهم أنهم ليسوا كذلك وأنهم أقوياء، فكانوا يهرولون ثلاثة أشواط ويمشون أربعة، وذلك ليظهروا للمشركين أنهم أقوياء وليسوا ضعفاء، فبقيت هذه السنة استصحاباً للأصل. وكان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه إذا استلم الركن يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وفيما رواه مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل الحجر ثم قال: أما والله لقد علمت أنك حجر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك، ما قبلتك. وللحجر الأسود منزلة عظيمة؛ فيسن استلامه وتقبيله، ومنه يبدأ الطواف، وإليه ينتهي،

---

(١) رواه النسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٢) رواه مسلم والترمذي.

ويقول الطائف عنده: بسم الله والله أكبر، اللهم إيمانًا وتصديقًا بكتابك ووفاءً بعهدك، واتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ.

وإنما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما قال في شأن الحجر الأسود، وأنه لا ينفع ولا يضر، كما جاء في رواية أخرى: والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك.(١) قال عمر رضي الله عنه ذلك، لأن الناس ـ كما أوضحنا من قبل ـ كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخاف عمر رضي الله عنه أن يفهم بعض النّاس معنى استلام الحجر الأسود على غير معناه الصحيح، ويظن البعض أنه مِن قبيل تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر رضي الله عنه أن يوضح للناس حقيقة الأمر، ووجه الصواب، وأن استلامه ما هو إلا اتباع لرسول الله ﷺ، لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان. فهذا حث من سيدنا عمر رضي الله عنه وتوجيه إلى الاقتداء بالرسول ﷺ، ولولا الاقتداء ما فعله.

واستلام الحجر الأسود وتقبيله إعلان وبرهان من المسلم بالتسليم للشارع في أمور الدين والطاعة المطلقة لرب العالمين، والاقتداء بالرسول ﷺ واتباعه فيما لم يكشف عن معناه، وفي هذا قاعدة عظيمة في اتباع الرسول ﷺ فيما يفعله ولو لم تعلم الحكمة فيه، فقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء به فقال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(٢)

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

وقد جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له فقال سبحانه:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[1]

وضع الحجر الأسود

قبل أن ينزل الوحي بالرسالة على رسول الله ﷺ، كان معروفا عند العرب وأهل مكة بالأمانة والحكمة وصواب الرأي، ولذلك لما اختلفوا عند وضع الحجر الأسود احتكموا إليه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها - أي لبناء الكعبة - كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان مبنى موضع الركن (أي موضع الحجر الأسود، ويطلق عليه اسم الركن لأنه مبنّي وموضوع في الركن) فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنةً مملوءةً دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عديّ بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفوا فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال ﷺ "هلم إلى ثوبا"، فأتي به، فأخذ الركن، فوضعه فيه بيده، ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من

---

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء.

الثوب، ثم ارفعوه جميعا"، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي «الأمين».

روى ابن سعد: أن رسول الله ﷺ بعد أن وضع الحجر الأسود في موضعه، ذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجراً يشد به الركن، فقال العباس بن عبدالمطلب: لا. ونحاه، وناول العباس رسول الله ﷺ حجراً، فشد به الركن، فغضب النجدي حيث نحّي، فقال النبي ﷺ: "إنه ليس يبني معنا في البيت إلا منا"، قال: فقال النجدي: يا عجبًا لقوم أهل شرف وعقول وسن عمدوا إلى أصغرهم سنا وأقلهم مالا فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له، أما والله ليفوتنهم سبقا وليقسمن بينهم حظوظًا وجدوداً (أي أرزاقًا وحظوظًا). ويقال إن هذا الرجل هو إبليس. وهكذا، نرى صيانة الله تعالى لبيته الحرام وللكعبة المشرفة ألا توضع فيها يد للبناء إلا بإرادة الله تعالى، وأن تكون من البيوت النقية [١].

كما نرى إلى أي مدى كانت حكمة رسول الله ﷺ وعظمة تصرفه الرشيد في رأب الصدع وجمع كلمتهم بعد أن كانوا مهددين بحرب أهلية تنذر بشر مستطير وأمر خطير، فكان في رأيه الحكمة وفصل الخطاب، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد.

الفصل الرابع :

من معالم البيت الحرام

«زمزم»

حفرها وفضل مائها

يتناول هذا الفصل الموضوعات التالية :

- **ماء زمزم في ضوء السنة النبوية**
- **لماذا سميت زمزم**
- **فضل ماء زمزم**
- **حفر زمزم وفضلها**
- **زمزم طعام طعم وشفاء سقم**

ماء زمزم في ضوء السنة النبوية

ماء زمزم منحة ربانية، فيها من الغذاء والشفاء والخير والبركة ما فيها، إنها المنحة التي منحها الله تعالى لإسماعيل عليه السلام في وقت كان أشد حاجةً إلى الماء، ومنحة لكل المسلمين الذين يَرِدُونها ويسعدون بالشرب منها، فهي سقيا من الله تعالى.

فعندما ترك إبراهيم عليه السلام إسماعيل وأمه، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، فنادته أم إسماعيل قائلة:

يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟

لقد قالت ذلك مرارًا، وهو لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. فلما نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، فانطلقت تبحث عن الماء، فوجدت الصفا أقرب جبل إليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس، قال النبي ﷺ: "فذلك سعي الناس بينهما". فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه. تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا". لقد شربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله[1].

---

(١) رواه البخاري.

أهل الحرم في رعاية الله

ويمكن أن نستنتج مما سبق: قوة إيمان السيدة هاجر ومدى توكلها على الله سبحانه وتعالى واعتمادها عليه، حيث إنها عندما سألت إبراهيم عليه السلام وعرفت أن ذلك عن أمر من الله تعالى أيقنت أنها وولدها لن يمسهما السوء، ولن يضيعا، فعندما سألت إبراهيم عليه السلام قائلة: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وعندئذ قالت: إذن، لا يضيعنا.

وبهذا الإيمان القوي واليقين العظيم والتوكل على الله، كانت حرية بما منحها الله وأهَّلها به أن تكون أما لنبي الله إسماعيل عليه السلام، ولهذه الأمة الكريمة.

كما يستنبط أيضًا أنها مع إيمانها وثقتها في الله، وإخبار إبراهيم عليه السلام لها بأن ذلك عن أمر من الله تعالى حيث اطمأنت واستبشرت فلم تخف الضياع. ومع كل هذا كانت تسعى وتبحث عن الغوث وعن الماء. وباشرت الأسباب إلى جانب الإيمان والتوكل على الله سبحانه وتعالى، فأخذت تسعى سبع مرات بين الصفا والمروة.

ويتضح كذلك من قول الملك لها ـ كما جاء في صحيح البخاري ـ: "لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله".

يتضح من ذلك أن الله تعالى حافظ أهل هذا البيت، وحافظ لبيته وحافظ لأمة هذا البيت قبلتها. ولقد جعله الله تعالى مثابةً للناس وأمنًا. وجعل من دخله كان آمنًا، وأحاطه بالعناية والخير، تجبى إليه ثمرات كل شيء.

بعد ذلك ولي إسماعيل عليه السلام أمر البيت، ثم وليه بعده ابنه نابت ثم وليه بعده مضاض بن عمرو الجرهمي ومن بعده إلى ابنه الحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث، وكان مع جرهم بنو قطوراء وهما ابنا عم.

ورئيس جرهم مضاض، ورئيس قطوراء السميدع. وقد وقعت الحرب بينهم وانتهت وأسفرت بنصر جرهم.

ولما بغى جرهم بمكة وأكلوا مال الكعبة أخرجهم الله من البلد الحرام على أيدي بني بكر من كنانة وغبشان من خزاعة.

وقد عرفت مكة المكرمة حتى منذ عهد الجاهلية بأنه لا يستقر فيها ظلم ولا بغي، ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريدها أو يقصدها أحد بسوء إلا هلك حتى قيل: أنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تبك أعناق الرجال إذا أحدثوا فيها.[1]

وقال ابن هشام: أخبرني أبوعبيدة أن بكة اسم لبطن مكة لأنهم كانوا يتباكُّون فيها أي يزدحمون، يعني في الطواف بالكعبة والدعاء والسعي بين الصفا والمروة.

ولما غلب الجراهمة على أمرهم، وهموا بالخروج، عمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي إلى غزالين من ذهب وسيوف وأدرع، فجعلها في زمزم وطمها أي دفنها وسواها، وذهب بقومه إلى اليمن. وقيل: بل دفنتها السيول.

حفر زمزم

وظلت زمزم منذ ذلك العهد مدفونةً ومجهولةً إلى أن قيض الله تعالى لها عبد المطلب جد الرسول ﷺ، وكان ذلك قبل ميلاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وفيما رواه ابن إسحاق، بشأن حفر زمزم أن عبد المطلب قال: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت - أي في المنام - فقال: احفر طيبة. (سميت بذلك لأنها للطيبين والطيبات من ذرية إبراهيم) قال: قلت: وما طيبة؟ فقال: ثم ذهب عني، فلما كان

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني فقال: احفر برة. (وسميت بذلك لأنها تفيض للأبرار وتغيض عن الفجار) قال: قلت: وما برة؟. قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة. (وسميت بذلك لأنه يضن بها على غير المؤمنين، فلا يتضلع منها منافق) قال: قلت: وما المضنونة؟. قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف (أي لا ينتهي ماؤها ولا يفرغ) ولا تذم (أي لا تكون قليلة الماء)، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

ومعنى العلامات السابقة: بين الفرث والدم التشبيه لها باللبن فهو يخرج من فرث ودم[1]. وأما الغراب الأعصم: فهو الذي في جناحه ريشة بيضاء. وأما قرية النمل، فقد قال عنها السهيلي:

أما قرية النمل أيضًا، ففيها من المشاكلة والمناسبة أن زمزم هي عين مكة التي يردها الحجيج والعمار من كل جانب، فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك، وهي لا تحرث ولا تزرع، وقرية النمل لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب. فلما تعين لعبد المطلب موضعها، غدا بمعوله ومسحاته وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء، فكانت زمزم، وكان عبدالمطلب يسقي الحجيج من زمزم ويحمل ماءها إلى عرفة.

(١) أخرج الأزرقي أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم، فبينما هو على ذلك إذ نحرت بقرة عند الحزورة، فانفلتت من الذابح تجري حتى غلبها الموت في موضع زمزم، فجزرت في ذلك الموضع، فأقبل غراب يهوي حتى وقع في الفرث، فبحث عن قرية النمل فقام عبدالمطلب فحفر هناك.

لماذا سميت زمزم؟

وسميت زمزم لكثرتها، يقال: ماء زمزم أي كثير. وقيل: لاجتماعها.

وعن مجاهد: إنما سميت زمزم، لأنها مشتقة من الهزمة، والهزمة بالعقب في الأرض. وقال ابن هشام: والزمزمة عند العرب الكثرة والاجتماع.

وقيل: لأنها زمت بالتراب حين نبع الماء لئلا يأخذ يميناً وشمالاً، ولو تركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شيء. وكذا نقل عن ابن عباس، وقيل: سميت بذلك لزمزمة الماء وهو صوته. قاله الحربي، وقيل: لأن الفرس كانت تحج في الزمن الأول فتزمزم عليها.

وقال المسعودي: والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء.

آداب الشرب من زمزم:

يستحب لمن أراد أن يشرب من زمزم أن يستقبل القبلة، ويذكر اسم الله، ويتنفس ثلاثًا خارج الإناء، بأن يشرب على ثلاث مرات وأن يتضلع منها، والتضلع هو أن يشرب حتى ترتفع أضلاعه كناية عن كثرة الشرب. وأن يحمد الله بعد الشرب. وأن يصحب شربها حسن الاعتقاد في فوائدها ومنافعها بإذن الله تعالى وإرادته وأن يرش على البدن من ماء زمزم.

وقال الشيخ عبدالله بن حميد - رحمه الله تعالى -: ويشرب من ماء زمزم لما أحب ويتضلع منه ويرش على بدنه وثوبه ويقول: بسم الله اللهم اجعله لنا علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وريًا وشبعًا وشفاءً من كل داء، واغسل به قلبي واملأه من خشيتك. وقال ابن العربي: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمعنى العلم والرزق والشفاء بمن صحت نيته وسلمت طويته ولم يكن به مكذبًا، ولا يشربه مجربًا، فإن الله مع المتوكلين وهو يفضح المجربين.

وقال ابن عرفة: إنما لم يكن عذبًا، ليكون شربه تعبدًا لا تلذذًا.[1]

وروى ابن ماجه والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل: "إذا شربت من زمزم فاستقبل القبلة، واذكر اسم الله وتنفس ثلاثة وتضلع منها فإذا فرغت فاحمد الله، فإن رسول الله ﷺ قال: "إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم""[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا شرب من ماء زمزم قال: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاءً من كل داء. وقال الخطيب في المغني والكمال الدميري: قال الحاكم هو صحيح الإسناد، ثم قال رحمه الله: وينبغي أن يزاد على ذلك: وقلبًا خاشعًا وذرية طيبةً. قال العلماء: ولا يقتصر على هذا الدعاء بل يدعو بما أحب من أمور الدنيا والآخرة، ويجتنب الدعاء بما فيه مأثمة.[3]

هل يجوز نقل ماء زمزم إلى البلاد؟

قال العلامة جمال الدين القرشي المالكي: يجوز نقل ماء زمزم إلى البلدان للتبرك به باتفاق المذاهب الأربعة، بل ذلك مستحب عند الشافعية والمالكية.[4] وقال الملا - رحمه الله - في المتفرقات: ويجوز الاغتسال والتوضأ بماء زمزم على وجه التبرك، ولا يستعمل إلا على طاهر، ويكره الاستنجاء به، ويستحب حمله إلى البلاد.

ومما يستدل به على ذلك أن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها حملت من ماء زمزم في قوارير، وقالت: إن رسول الله ﷺ حمله في الأداوى والقرب[5].

(١) هداية الناسك إلى أهم المناسك للشيخ عبدالله بن حميد.

(٢) البداية والنهاية (٢/ ٢٤٧).

(٣) الجامع اللطيف للعلامة جمال الدين القرشي المكي.

(٤) الجامع اللطيف في فضائل مكة وأهلها.

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ استهدى سهيل بن عمرو من ماء زمزم، فبعث له براويتين[١].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان يصبه على المرضى ويسقيهم منه، وأنه حنك به الحسن والحسين رضي الله عنهما مع تمر العجوة.

اقتراح..

وإذا كانت فضائل ماء زمزم وفوائده بهذه المثابة، وإذا تبين لنا جواز نقله، وأن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قد حملته في قوارير، وقالت أن رسول الله ﷺ حمله، فهل من الممكن تعبئة بعض ماء زمزم بطرق علمية صحية، على حسب ما يراه المسئولون، ليعم نفعه بعض البلاد الإسلامية ليتمكن من شربه والانتفاع به لمن لا يستطيع الحج والعمرة، لمرض أو لغير ذلك من الأعذار؟

ومن الواضح أن ماء زمزم منحة ربانية، وأن في شربه عبادة إلى جانب ما له من فوائد عديدة، ولذا، فليس في بيعه ونقله إلى البلاد الإسلامية مقصد من مقاصد التجارة والربح، بل يكون القصد من نقله عموم الانتفاع به ابتغاء وجه الله.

وأما العائد المالي من ثمن ما يباع، فمن الممكن أن يرصد لمشاريع تحفيظ القرآن الكريم والفقراء والعاملين عليه، أي الذين يقومون بتعبئته، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

فضل ماء زمزم

مما ورد في فضل ماء زمزم ما جاء عن أنس بن مالك: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال: "فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم"[٢]. وقد علل العلماء وشراح

(١) أخرجه الطبراني بسند رجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري.

الحديث غسل صدره الشريف بماء زمزم لفضله على جميع أنواع المياه إلا الماء الذي نبع من بين أصابع الرسول ﷺ، فإنه ليس من الماء الذي على وجه الأرض بل هو من المعجزات.

- ومن فضائل ماء زمزم وفوائده: أنه يشبع الجائع، ويروي الظمآن، وفيه شفاء بأمر الله تعالى وإرادته، ففي الحديث: "زمزم طعام طعم وشفاء سقم"[1]. وفي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي ذر أنها "طعام طعم" أي مشبع، وزاد الطيالسي من الوجه الذي أخرجه منه مسلم "وشفاء سقم".
- ولا تقتصر فوائد الشرب من ماء زمزم على الشبع والري والشفاء فحسب، بل إنها تشمل سائر ما يطلبه المؤمن من ربه بصدق وإيمان وإخلاص، فهي تفيد في كثرة الرزق وكثرة العلم وكل ما شرب له، فقد جاء في المستدرك من حديث ابن عباس مرفوعًا: "ماء زمزم لما شرب له"، واختلف في إرساله ووصله، وإرساله أصح، وله شاهد من حديث جابر. وفيما رواه الدارقطني والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "ماء زمزم لما شرب له فإن شربته تستشفي به، شفاك الله. وإن شربته لشبعك، أشبعك الله. وإنْ شربته لقطع ظمئك، قطعه الله. وهي هزمة جبريل وسقيا إسماعيل"، ورواه الحاكم وزاد فيه: "وإن شربته مستعيذا أعاذك الله"، قال: فكان ابن عباس إذا شرب من ماء زمزم قال: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا، وشفاءً من كل داء.
- ومن فوائده: شربه لعطش يوم القيامة، وكان عبدالله بن المبارك إذا شرب من ماء زمزم استقبل الكعبة وقال: اللهم إن رسول الله ﷺ قال: "ماء زمزم لما شرب له" وهأنذا أشربه لعطش يوم القيامة، ثم شرب[2].

(١) رواه ابن أبي شيبة والبزار من حديث أبي ذر.
(٢) رواه البيهقي بإسناد صحيح.

شرب ماء زمزم من السنة

قال السائب رضي الله عنه: اشربوا من سقاية العباس، فإنه من السنة. وفي الشرب منه تأس برسول الله ﷺ، ويصح الشرب منه في جميع الأحوال من قيام وقعود أو ركوب. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سقيت رسول الله ﷺ من زمزم فشرب وهو قائم. قال عاصم: فحلف عكرمة ما كان يومئذٍ إلا على بعير. رواه البخاري. وعند أبي داود من رواية عكرمة عن ابن عباس أنه أناخ فصلى ركعتين، فلعل شربه من زمزم كان بعد ذلك، ولعل عكرمة إنما أنكر شربه قائمًا لنهيه عنه، لكن ثبت عن علي عند البخاري أنه شرب قائمًا، فيحمل على بيان الجواز[1].

من الصحابة من شرب زمزم فكفته عن الطعام:

ذلكم هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه، وحديث إسلامه مذكور في صحيح البخاري، وأنه أقام بالمسجد واستغنى بزمزم عن الطعام والشراب ثلاثين من بين يوم وليلة. ووقع في رواية أبي قتيبة: فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد[2].

من الأئمة المحدثين من شرب زمزم لأجل العلم:

وذلكم هو الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر الملقب بإمام الأئمة المولود سنة ثلاث وعشرين ومائتين والمتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة[3].

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني.
(٢) فتح الباري (٧/١٧٥).
(٣) مرآة الجنان (٢/٢٦٤).

لقد كان هذا الإمام الجليل يحفظ فقهيات الحديث كما يحفظ القارئ السورة. وكان يحفظ أسانيد الأحاديث ومتونها حفظًا جيدًا، وقال ابن حبان: لم أر مثل ابن خزيمة في حفظ الإسناد والمتن. فهو إذًا قد جمع بين حفظ الإسناد والمتن وحفظ الفقهيات من الأحاديث، وإنها لمقدرة فذة استحق بها أن يلقب بإمام الأئمة. وقيل لابن خزيمة يومًا: من أين أوتيت العلم؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له"، وإني لما شربت ماء زمزم سألت الله علمًا نافعًا[1].

ومن العلماء من شرب زمزم لحوائج أخرى

منهم الشيخ الإمام عبد الوهاب الشعراني، فقد ذكر أنه لما حج سنة سبع وأربعين وتسعمائة، وشرب من ماء زمزم في سبع وخمسين حاجة له ولإخوانه قال: فقضى الله جميع ما كان منها من حوائج الدنيا، ونرجو من كرم الله قضاء الحوائج الأخروية، فإن قضاء حوائج الدنيا عنوان للآخرة[2].

- ومن ذلك ما ذكره العلامة الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر عن نفسه، فقال: وأنا شربته مرة، وسألت الله وأنا في بداية طلب الحديث أن يرزقني الله حالة الذهبي في حفظ الحديث، ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة وأنا أجد من نفسي المزيد على تلك المرتبة فسألت رتبة أعلى منها فأرجو الله أن أنال ذلك.

- ومن ذلك ـ أيضا ـ ما نقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: شربت من ماء زمزم لثلاث: شربته للعلم، وشربته للرمي، فكنت أصيب عشرة عشرة ومن عشرة تسعة، وشربته للجنة وأرجوها[3].

(١) النجوم الزاهرة (٣/٣١١).
(٢) لواقح الأنوار للشيخ الشعراني ص ٢٤٢.
(٣) الجامع اللطيف للشيخ جمال الدين القرشي المكي ص٢٦٦.

شفاء ماء زمزم للحمى:

جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "الحمى من فيح جهنم، فأطفئوها بالماء"، وفي حديث ابن عباس: "بماء زمزم" من رواية أبي جمرة، قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمى. وفي رواية أحمد: كنت أدفع الناس عن ابن عباس، فاحتبست أيامًا، فقال: ما حبسك؟ قلت: الحمى. قال: أبردها بماء زمزم فإن رسول الله ﷺ قال: "الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء أو بماء زمزم"، شك همام. كذا في رواية البخاري من طريق عامر العقدي عن همام، وقد تعلق به من قال بأن ذكر ماء زمزم ليس قيدًا لشك راويه فيه. وممن ذهب إلى ذلك ابن القيم.

وتعقب بأنه وقع في رواية أحمد عن همام: (فأبردوها بماء زمزم) ولم يشك. كذا أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية عفان، وإن كان الحاكم وهم في استدراكه. وترجم له ابن حبان بعد إيراده حديث ابن عمر فقال: ذكر الخبر المفسر للماء المجمل في الحديث الذي قبله وهو أن شدة الحمى تبرد بماء زمزم دون غيره من المياه، وساق حديث ابن عباس، وقد تعقب على تقدير أن لا شك في ذكر ماء زمزم فيه، بأن الخطاب لأهل مكة خاصةً لتيسر ماء زمزم عندهم[(١)].

- ومما روي أن رسول الله ﷺ جاء إلى زمزم فنزعوا له دلوًا، فشرب ثم مج في الدلو، ثم صبه في زمزم، ثم قال "لولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم".[(٢)]

وفي رواية أنه غسل وجهه وتمضمض منه ثم أعاده فيها، وروي أن الذي نزع له الدلو هو العباس بن عبد المطلب.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١٧٦).

(٢) رواه الطبراني.

حفر زمزم وفضلها

إن زمزم كانت سقيا إسماعيل عليه السلام، عندما تركه أبوه إبراهيم عليه السلام مع أمه ونفد الزاد والماء الذي كان معها وأخذت تتردّد بين الصفا والمروة بحثًا عن الغوث حتى قال الملك بعقبه، فتفجرت زمزم منذ ذلك العهد البعيد.

ويشاء رب العزة سبحانه وتعالى أن يكون حفر زمزم بعد ذلك على يد عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ، فكما روى ابن إسحاق في سيرته - بسنده - عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه كان يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها، قال: قال عبدالمطلب إني لنائم في الحجر (أي في حجر إسماعيل) إذ أتاني آت فقال احفر طيبة (وسميت بذلك لأنها للطيبين من ذرية إبراهيم عليه السلام) قال: قلت: وما طيبة؟ فقال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة (وسميت بذلك لأنها كثيرة البر وتفيض على الأبرار) قال: قلت: وما برة قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة (لأنها ضن بها على غير المؤمنين، فلا يتضلعون منها) قال: قلت وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدًا (أي لا يفرغ ماؤها) ولا تذم (أي لا تقل) تسقي الحجيج الأعظم وهي بين الفرث والدم (وهذا تشبيه لها باللبن الذي يخرج من بين فرث ودم أو أنه كان في موضعها فرث ودم) عند نقرة الغراب الأعصم (وهو ما كانت إحدى رجليه بيضاء) عند قرية النمل (إشارة إلى مكة التي يأتيها الناس حاملين البر والشعير فليست ذات زرع وقرية النمل كذلك تجلب لها الحبوب).

فحددت هذه الرؤى المتكررة في تأكيدها لحقيقة زمزم، وموقعها ومكانها، فلما عرف عبدالمطلب مكانها، خرج حاملاً معوله ومعه ابنه الحارث، وأخذ يحفر في هذا

المكان الذي حدد له. فلما بدا له غطاء البئر كبرّ وكانت البئر مغطاة بحجارة، وعرفت قريش عندئذ أن عبد المطلب قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها لحقًا فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم. قالوا: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. قال: نعم. وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، والأرض إذ ذاك مفاوز، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، فني ماء عبد المطلب وأصحابه حتى كادت أعناقهم تنقطع من العطش، وضن عليهم بنو قومهم من قريش بالماء وقالوا: إنا بمفاوز وإنا لنخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فرأى عبد المطلب أن يحفر كل واحد لنفسه قبره، ففعلوا ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى ثم بدا لعبد المطلب فقال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا الماء لعجز فعسى أن يرزقنا الله ببعض البلاد. فارتحلوا، حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته، انفجرت عين ماء عذب من تحت خفها، فكبَّر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشربوا وملأوا أسقيتهم ثم دعا قريشاً فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله. فجاءوا وشربوا واستقوا ثم قالوا: قد والله قضى الله لك علينا يا عبدالمطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً. فرجع ورجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها.

زمزم طعام طعم وشفاء سقم

إن ماء زمزم منحة ربانية لسيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه آنئذ، وهي منحة مباركة دائمة للأمة الإسلامية إلى يوم القيامة. وإلى جانب كونها منحةً وفضلاً

من الله تعالى، فإن بركتها قد زادت بما صنعه رسول الله ﷺ فيها حين مجَّ فيها من فمه الشريف بعض الماء الذي زادها بركة على بركة، وخيراً على خير.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: جاء النبي ﷺ إلى زمزم، فنزعنا له دلواً، فشرب، ثم مجَّ فيها، ثم أفرغناها في زمزم، ثم قال: "لولا أن تغلبوا عليها لنزعت بيدي"(١).

ومن فضائل ماء زمزم، الاستشفاء بها، فهي طعام طعم وشفاء سقم، وورد الاستشفاء بها من الحمى، عن أبي جمرة الضبعي قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة فأخذتني الحمى، فقال: أبردها عنك بماء زمزم فإن رسول الله ﷺ قال: "الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء" أو قال: "بماء زمزم"(٢). وفي رواية أحمد والنسائي: "فأبردوها بماء زمزم". وقد ورد ما يثبت أنها طعام طعم وشفاء سقم.

ففي حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه - فيما رواه البخاري ومسلم - قال: ولقد لبثت - يا ابن أخي - ثلاثين بين ليلة ويوم وما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عُكَنُ بطني، وما وجدت على كبدي سُخْفَةَ جوع. قال: وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر وطاف بالبيت قال: "متى كنت ها هنا؟". قال: قلت: كنت ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: "فمن كان يطعمك؟" قال: قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عُكَنُ بطني وما أجد على بطني سخفة جوع. قال: "إنها مباركة إنها طعام طعم"، وفي رواية البيهقي والبزار "زمزم طعام طعم وشفاء سقم". ولقد اختص الله سبحانه وتعالى ماء زمزم بأن يحقق لشاربيه ما يتمنونه فعن جابر بن عبدالله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له"(٣).

---

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد وابن أبي شيبة.

ولفضل ماء زمزم، كان عليه الصلاة والسلام ينقلها وتنقل إليه، ولفضلها حث رسول الله ﷺ المسلمين أن يتضلعوا منها بأن يملأوا بطونهم وضلوعهم وهذا هو الفرق بين المسلمين والمنافقين. عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه جاءه رجل فقال: من أين جئت؟ قال: من زمزم. قال: فشربت منها كما ينبغي؟ قال: وكيف؟ قال: إذا شربت منها، فاستقبل القبلة واذكر اسم الله وتنفس ثلاثًا وتضلع منها، فإذا فرغت فاحمد الله عز وجل، فإن رسول الله ﷺ قال: "إن آية ما بيننا وبين المنافقين إنهم لا يتضلعون من زمزم".[1] ولقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه نقل ماء زمزم ونقله من بعده أزواجه، عن عائشة رضي الله عنها أنها "كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله".[2]

وهكذا، يتضح لنا من هذه النصوص والأدلة السابقة فضل ماء زمزم وجواز نقله، وجواز الاستشفاء به. وعلى من يشرب من ماء زمزم أن يسمي الله تعالى وأن يتضلع وأن يستقبل القبلة وأن يدعو الله تعالى قائلا: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاء من كل داء. وثبت أن بعض الأئمة شربه بنية حفظ العلم والحديث فحفظها وأن البعض شربه بنية الاستشفاء فشفاه الله والبعض شربه بنية الطعام فسد الله جوعته، ألا إنها نعمة من أجلّ النعم الإلهية، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.

---
(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه الترمذي.

الفصل الخامس
خصائص البيت الحرام

تناول هذا الفصل الموضوعات التالية :

- **من خصائص المسجد الحرام:**
  - فيه آيات بينات وإليه تشد الرحال
  - رواية أهل الحرمين، ولا يدخله الدجال
  - كونه قبلة، ولا يخلو من الطائفين
  - القسم به، وإليه تهوي القلوب
- **من خصائص الحرم المكي:**
  - مكة دار السلام، دخولها بالإحرام
  - القلوب إلى زيارته راغبة
  - أول بيت، استحباب الغسل لدخوله، الصلاة فيه بمائة ألف، مضاعفة الثواب، المحاسبة على الإرادة
  - فضل البيت الحرام

• من خصائص المسجد الحرام:

• أنه أول بيت وضع للناس لقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[١]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع على الأرض، فقال: "المسجد الحرام" قلت: ثم أي؟ قال: "المسجد الأقصى" قلت: وكم بينهما؟ قال: "أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل"[٢].

• ومن خصائصه، استحباب الغسل لدخول الحرم ولدخول مكة: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان لا يقدم مكة إلا بات بذي طوى، حتى يصبح ويغتسل ثم يدخل مكة نهاراً، ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان يفعل ذلك.

• ومن خصائص المسجد الحرام أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "صلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام".[٣] وفي هذا الحديث ما يدل على أن الصلاة فيه تفضل على مسجد رسول الله ﷺ، إذ إن الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ بألف صلاة فيما سواه، والصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه، وهذه الزيادة والمضاعفة في الثواب إنما هي خاصة بالكيف لا بالكم وبعدد الحسنات لا بعدد الركعات.

---

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

فلو كان على إنسان صلوات كثيرة فاتته لا كفارة لها إلا قضاؤها، لا يغني عنها الصلاة في الحرم المكي أو الحرم النبوي، إنما الزيادة فيهما خاصة بالثواب والحسنات. عن عبيد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة"(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة"(٢).

- ومن خصائص المسجد الحرام أنه تصح الصلاة فيه في جميع الأوقات، فهو مُسْتَثْنى على رأي الأكثر من تحريم الصلاة فيه في الأوقات التي تحرم الصلاة فيها؛ إذ إن الصلاة تحرم عند طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رمح، وعند الاستواء حتى تزول، وعند الاصفرار حتى تغرب، وبعد صلاة الصبح إلى الطلوع، وبعد صلاة العصر إلى الغروب. ويُسْتَثْنى الحرم المكي من هذا؛ لما ورد من حديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: "يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل ونهار"(٣)، وفي رواية: "لا صلاة بعد الصبح إلا بمكة". وخص الإمام أحمد هذا بركعتي الطواف، وقال مالك وأبو حنيفة: مكة كغيرها في المنع؛ تقديماً لأحاديث المنع.

---

(١) رواه أحمد والبزار.

(٢) رواه البزار.

(٣) رواه الترمذي وأبوداود.

● ومن خصائص الحرم المكي أن مضاعفة الثواب فيه لا تقتصر على أداء الصلاة، بل تشمل أنواع العبادات والطاعات الأخرى، قياسًا على ما ثبت في الصلاة والنظر إلى الكعبة، قال الحسن البصري: صوم يوم بمكة بمائة ألف، وصدقة درهم بمائة ألف، وكل حسنة بمائة ألف حسنة.

● ومن خصائص الحرم المكي ما ذكره بعض العلماء من مضاعفة السيئات كما تضاعف الحسنات؛ وقال بهذا مجاهد وابن عباس وابن مسعود. وأخذ بعض العلماء بعموم الأدلة فلم ير مضاعفة السيئة لعموم الأدلة الواردة في ذلك، كقول الله تعالى:

((وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا))[1]

وحمل بعض العلماء مضاعفة السيئة على الكيفية لا على الكمية، وقالوا: معناه أن السيئات تتفاوت، فمن عصى الملك على بساط ملكه ليس كمن عصاه في موضع بعيد عنه.

● ومن الخصائص أيضًا: أن الله سبحانه وتعالى يعاقب على الهَمِّ بالسيئة وإن لم يفعلها. قال أحمد بن حنبل: لو أن رجلاً هَمَّ أن يقتل في الحرم أذاقه الله من العذاب الأليم. ثم قرأ:

((وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ))[2]

(١) من الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ٢٥ من سورة الحج.

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالهَمِّ قبل الفعل إلا مكة. وتلا الآية السالف ذكرها.

- ومن خصائص الحرم المكي أن صيد الحرم حرام على المُحرم وغير المُحرم لقول الرسول ﷺ: "ولا يُنَفَّرُ صيدها". وأما ما كان مؤذيًا فإنه لا يحرم قتله، كالوزغ والحيات والعقارب والكلب العقور والحدأة والفأرة.
- ومن الخصائص أيضًا: تحريم قطع شجر الحرم وحشيشه إلا ما ورد دليل باستثنائه كالإذخر وهو نبات يستفاد به.
- ومن الخصائص أنه لا يدخل أحد مكة المكرمة إلا محرمًا بحج أو عمرة، فيدخلها بنسك تعظيمًا للحرم، إلاَّ من كان دائم الدخول متكرر الحاجة كالحطاب ونحوه.
- ومن خصائص الحرم المكي أيضًا: أن من أحرم متمتعًا بالعمرة إلى الحج والقارن من أهل مكة المستوطنين لا يلزمه دم؛ لقول الله تعالى:

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن[1]

أي كان أهله دون مرحلتين من مكة وقيل من الحرم.

- ومن خصائص الحرم المكي أيضًا: أن الكافر لا يدخل حرم مكة؛ لقول الله تعالى:

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ))[2]

وفي الحديث: "لا يجتمع مسلم ومشرك في الحرم"[3].

(١) من الآية ١٩٦ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ٢٨ من سورة البقرة.
(٣) رواه الشافعي في مسنده.

- ومن خصائص المسجد الحرام أن تقدم المأموم على الإمام في غير المسجد الحرام مبطل للصلاة - على أظهر القولين - سواء أكان التقدم في جهة الإمام أم في غير جهته، وأما في المسجد الحرام، فإذا تقدم المأموم على الإمام وصار أقرب إلى الكعبة منه، نظر: إن كان أقرب إليها من جهة الإمام كما لو كان الإمام يصلي في مقام إبراهيم عليه السلام والمأموم عند الباب بطلت صلاته، وإن كان أقرب إليها في غير جهة الإمام كما لو وقف الإمام في المقام والمأموم في الحِجْر مثلاً فأصح الطريقين القطع بالصحة كما قال الرافعي، لأنه غير موصوف بالتقدم عليه ولأنه يمكنه مشاهدة أفعاله والاقتداء به حينئذ للمحاذاة[١].

- ومن خصائص البيت الحرام تحيته الطواف به. وأما سائر المساجد فتحيتها صلاة ركعتين تحية للمسجد، عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ أول شيء بدأ به الطواف[٢].

- ومن خصائص البيت الحرام أن الدعاء عند رؤية الكعبة المشرفة مستجاب، عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: "تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف ونزول الغَيْثِ وإقامة الصلاة ورؤية الكعبة"[٣].

- ومن خصائص الحرم المكي: أن الدعاء في حرم مكة مستجاب، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: لما دعا النبي ﷺ على قريش شق عليهم وكانوا

(١) نقلاً عن كتاب إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البيهقي وفي إسناده: عفير بن معدان، قال أبوحاتم الرازي: لا يعتد به، والحاكم يصحح حديثه في مواضع.. وهو من فضائل الأعمال.

يرون أن الدعوة في تلك البلدة مستجابة[١]. ومن مواطن إجابة الدعاء أيضًا ـ كما أشار إلى ذلك الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ في الطواف وعند الملتزم ـ وهو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة ـ وتحت الميزاب وفي البيت وعلى الصفا والمروة وفي المسعى وخلف المقام وفي عرفات والمزدلفة وعند الجمرات وعند الركن والمقام وفي جوف الكعبة، وقال الحسن البصري رضي الله عنه: إن الحجر الأسود يستجاب عنده الدعاء أيضًا. ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى الصفا وصلى عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه وجعل يحمد الله ويدعو ما شاء الله أن يدعو[٢].

- ومن خصائص البيت الحرام أن مجرد النظر إلى الكعبة المشرفة عبادة يثاب العبد عليها.
- ومن خصائص المسجد الحرام ما رآه بعض الفقهاء من أن المرور بين يدي المصلي في المسجد الحرام لا يكره، وأن الصلاة لا يقطعها بمكة شيء ولو كان المار امرأة بخلاف غيرها.[٣] واحتج عليه عبدالرازق في كتاب الصلاة بما رواه عن عمر بن قيس: أخبرني كثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي في المسجد الحرام، والناس يطوفون بالبيت بينه وبين القبلة بين يديه ليس بينه وبينهم سترة.
- ومن خصائص البيت الحرام والمسجد الحرام أن صلاة العيد في سائر البلاد الأخرى تصلى في المصلى إلا في مكة فإنها تصلى في المسجد؛ لأنه

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حكاه القاضي أبو يعلى في الأحكام السلطانية ونقل ذلك عن مالك وعبدالرازق.

خير بقاع الأرض بفضل المسجد الحرام ومشاهدة الكعبة المشرفة وحصول المضاعفة في الثواب على الصلاة فيه.

- ومن الخصائص أن لُقطَة مكة وحرمها لا يجوز لأحد أن يأخذها ويتملكها، وإنما يجوز أخذها للحفظ والتعريف بها، بخلاف سائر البلاد؛ لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: "إن هذا البلد حرمه الله لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرَّفها"[1].

وواضح أن ما يجده الإنسان في الأرض ويلتقطه في سائر البلاد عليه أن يُعرِّفَهُ مدة سنة وأن يحفظه فإن جاء صاحبه أخذه وإن لم يجد له صاحبًا حل له أن يتصدق به أو ينتفع به؛ لحديث سويد بن غفلة قال: لقيت أوس بن كعب فقال: وجدت صرة فيها مائة دينار فأتيت النبي ﷺ فقال: "عَرِّفها حولاً". فعرَّفتها فلم أجد من يعرفها ثم أتيته ثلاثًا فقال: "احفظ وعاءها وعددها ووكاءها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها"[2].

هذا في غير حرم مكة المكرمة، أما لقطة الحرم فيحرم أن يأخذ من وجدها إلا ليُعَرِّفها؛ لقول الرسول ﷺ: "ولا يلتقط لقطتها إلا من عرَّفها".

- ومن خصائص الحرم المكي أن الله تعالى أقسم به في القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ ﴾[3]

(١) رواه البخاري ومسلم، ومعنى (يعضد): يقطع.
(٢) رواه البخاري والترمذي.
(٣) الآيتان ١و٢ من سورة البلد.

والمعنى: أقسم بالبلد الحرام وهو مكة المكرمة زادها الله تشريفًا وتكريماً، فقد شرفها الله تعالى ببيته الحرام الذي جعله قبلة الصلاة لجميع المسلمين. والقسم بالبلد الحرام فيه تشريف له وتعظيم لشأنه، وهذا القسم بالبيت الحرام مقيد بحلول رسول الله ﷺ فيه وإقامته به إظهاراً لمزيد فضله وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. وفي هذا القسم بالبلد الحرام - الذي هو سكن خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام - تكريم للرسول ﷺ وبيان لمنزلته عند رب العزة سبحانه وتعالى. وفي الوقت نفسه توجيه لما يجب على الناس من طاعة رسول الله ﷺ ووجوب احترامه وتوقيره، وفيه إيضاح ووعيد للكفار الذين يؤذونه في البلد الحرام بأن إيذاءه من أكبر الكبائر: قال المفسرون في حرف (لا) في قوله تعالى: (لا أقسم بهذا البلد) بأنه في هذا الموضع عند النحويين صلة، أي ليس للنفي.

كما أقسم الله تعالى بالبلد الحرام في قوله سبحانه:

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ ﴾[1]

والبلد الأمين هي مكة المكرمة التي يأمن فيها الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، قال تعالى:

((وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ))[2]

(١) الآيات ١:٣ من سورة التين.

(٢) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

وقال جل شأنه:

((أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ))[1]

وفي القسم بهذه الأماكن دلالة على شرفها وما فيها من الخيرات والبركة، وقال ابن كثير: ذهبت بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاث بعث الله في كل منها نبيًا مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون وهي «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام، والثاني: طور سنين وهو «طور سيناء» الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمنًا وهو الذي أرسل الله فيه محمداً ﷺ".

- ومن خصائص البلد الحرام أن البيت الحرام قد أضافه رب العزة سبحانه وتعالى إلى نفسه في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]

ففي إضافة البيت إلى الله تعالى في قوله (وطهر بيتي) إشارة إلى خصوصية بيت الله، ومنزلته العظيمة عند الله تعالى ورفعة قدره، وهذا هو السر في إقبال القلوب إليه وشوقهم له

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ٢٦ من سورة الحج.

أطوف به والنفس بعد مشوقة ∴ إليه وهل بعد الطواف تداني
وألثم منه الركن أطلب برد ما ∴ بقلبي من شوق ومن هيمان
فوالله ما أزداد إلا صبابة ∴ ولا القلب إلا كثرة الخفقان

● ومن خصائص البيت الحرام، أن الله سبحانه وتعالى جعل قلوب الناس تهوي إليه دون غيره، يجذب القلوب إلى حماه، ويجعل القلوب تثوب إليه مرة بعد أخرى. وكلما اقترب الناس منه، ازدادوا إليه شوقًا، وكما قال أبو ظاهر الجزائري:

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها ∴ حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

ولعل السر في هذا الشوق والتعلق هو دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام، حين توجه إلى الله جلت قدرته، وذلك عندما ولدت هاجر إسماعيل عليه السلام، فغارت منها سارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام. فأمر الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه هاجر من الشام إلى مكة المكرمة، فأطاع إبراهيم أمر ربه وهاجر بهما ووضعهما عند دوحة في مكان زمزم الآن. وبعد أن تركهما، توجه إلى الله بهذا الدعاء:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

وقد روي أن من أسباب الشوق إلى البلد الحرام والبيت الحرام أن الله تعالى أخذ الميثاق من بني آدم هناك، وهذا منزع إلى أن حب الوطن من الإيمان.

● ومن خصائص البيت الحرام أن القلوب إلى زيارته راغبة، والنفوس إليه متعطشة، وأن الأفئدة تظل مشوقة ومتعلقة. فمهما حج الإنسان واعتمر، ومهما تكررت زيارته للبيت، فإنه يظل في شوق إليه، وفي حب جارف، وعاطفة دينية جياشة؛ لأنه يجذب القلوب إليه. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بهذا السر الذي أودعه بيته في شدة تعلق العباد به، وذلك أنه قال جل شأنه:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[1]

أي يثوبون إليه على تعاقب الأعوام ومرور الأشهر والأيام من جميع البلاد والأقطار، فلا يقضون منه وطراً من الأوطار، بل كلما قربوا منه ازدادوا شوقًا إليه وتعلقًا به؛ لأن مكة أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأحب بلاد الله تعالى إلى رسول الله ﷺ، فكيف لا تتعلق بها القلوب، وكيف لا ترجع وتثوب مرة بعد أخرى، ففيها الكعبة والمقام، وفيها الحجر والملتزم، وفيها زمزم وحراء، وفيها تنزلت ملائكة السماء. لهذا، فإن تعلق المؤمنين والموحدين أمر طبيعي لكل إنسان يؤمن بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً. فكيف لا تتعلق بها القلوب، وتزداد شوقًا إليها وهي قريبة منها؟

ومن أسباب هذه الخصوصية كذلك أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا إليها بذلك كما حكى هذا القرآن الكريم في قول رب العزة سبحانه وتعالى:

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة.



﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]

أي تحن وتسرع شوقًا وحبًا إلى بيت الله تعالى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو قال: فاجعل أفئدة الناس. لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم ولكن قال: (من الناس)، فهم المسلمون. كما دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله كما حكى القرآن الكريم: (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)، وقد استجاب رب العزة سبحانه وتعالى هذا الدعاء؛ فجعل مكة بلدًا حرامًا يحرم القتال فيه وجعله آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من عند الله جل شأنه، ومما ذكرته كتب الآثار ونوه به العلماء المحققون الإشارة إلى خصوصية الحرم المكي بأن الله تعالى يلحظ الكعبة في كل عام لحظةً في ليلة نصف شعبان، فعند ذلك تحن إليها قلوب المؤمنين، وقيل: سبب الشوق أنه أخذ الميثاق من بني آدم ثَمَّ (أي هناك) وهذا يدل على أن حب الوطن من الإيمان[2]. وسواء صح هذا أم لا، فلا يخفى على مسلم مكانة بيت الله الذي جعله الله حرمًا آمنًا واختص العبادة فيه بخصوصية جعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه، وأنزل على أرضه وحيه الآلهي، وجعل الكعبة قبلة الصلاة فيه، وجعل مكة أم القرى، زادها الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا، اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا، وزد من زاره ممن حج أو اعتمر تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا، اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دار السلام.

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.
(٢) ذكر ذلك الزركشي في كتابه «إعلام الساجد بأحكام المساجد».

- ومن خصائص الحرم المكي أن مكة المكرمة دار إسلام أبدًا، فقد قال رسول الله ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح"[1]، أي بعد فتح مكة؛ لأنها صارت دار إسلام، فلا يتصور أن يهاجر أحد منها، وإنما كانت الهجرة قبل ذلك، عندما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، فكانت فرضًا على المسلمين؛ لتقوية الإسلام والوقوف مع رسول الله ﷺ.

- ومن خصائص الحرم المكي أن للموت فيه خصوصية وهي أن الله سبحانه وتعالى يبعث من يموت فيه من الآمنين يوم القيامة، عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: "من مات بين الحرمين حاجًا أو معتمرًا بعثه الله يوم القيام لا حساب عليه ولا عذاب"، ورواه الدارقطني من حديث حاطب: "من مات بأحد الحرمين، بعث من الآمنين يوم القيامة"، وهي خصوصية لأرض مكة المكرمة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بأنها أحب أرض الله إلى الله تعالى وأحب أرض الله إلى رسول الله ﷺ.

- ومن خصائص الحرم المكي كف الجبابرة عنه، وصد كل عدو يريد ببيت الله شرًا، كما حدث بشأن أصحاب الفيل الذين ردهم الله عن بيته وصدهم عن حرمه وأرسل عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل.

- واختص الحرم المكي بأنه لا يدخله أحد إلا وهو محرم متواضع مكشوف الرأس، وقد تجرد من زيه الدنيوي، وأقبل على بيت ربه بتواضع وخشوع، ومحبة وخضوع، ملبيًا ومكبرًا، وحامدًا وشاكرًا، بعيدًا عن مظاهره الدنيوية، متذكرًا الحياة الأخروية، رافعًا أكف الضراعة إلى ربه، وهو على

---

(١) متفق عليه.
(٢) الآية ١ من سورة البلد.

يقين أن الله يستجيب الدعاء، في هذه البقاع المطهرة التي اصطفاها لتكون موطن قبلته، ومنزل وحيه، وإشراق دعوة الله حيث أشرقت دعوة التوحيد ودعا الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة والسلام جميع العباد إلى رب العباد، دعاهم إلى أن يؤمنوا بالله وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

- ومن خصوصيات البيت الحرام والبلد الحرام ومنزلته عند رب العزة سبحانه وتعالى أن الله تعالى أقسم به في قوله جل شأنه:

﴿ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ ﴾[1]

وقال سبحانه:

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ ﴾[2]

أي أقسم، لأن "لا" في هذا الموضع عند النحويين صلة، كما أن الله سبحانه وتعالى أضاف البيت إلى نفسه في قوله جل شأنه:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ ﴾[3]

وواضح أن في هذه الإضافة بيانًا جليًا من رب العزة سبحانه وتعالى لخصوصية البيت الحرام، وما له عند الله تعالى من منزلة لا ترام، ففي هذه الإضافة بيان لمكانة البيت وإشارة إلى سمو منزلته عند رب العالمين؛ فهو دعامة

---

(١) الآية ٣ من سورة التين.
(٢) الآية ١ من سورة البلد.
(٣) الآية ٢٦من سورة الحج.

الإسلام، والبيت الحرام به تضاعف الحسنات، وتمحى السيئات، وتتحقق الآمال، ويستجاب الدعاء. وهذا من أهم الأسباب التي تجعل أفئدة الناس تهوي إليه، وتقبل عليه؛ فهو قبلة المسلمين، وموطن دعوة خاتم النبيين تزداد القلوب شوقًا إليه وتتمنى العودة مرات بعد مرات.

- ومن خصائص الكعبة المشرفة أن الله تعالى جعلها قبلةً للصلاة يتجه المسلمون إليها في كل صلاة ولا تصح الصلاة إلا بالتوجه إلى الكعبة المشرفة. قال الله تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١)

- ومن خصائص الكعبة المشرفة أيضًا أنها ما خلت من الطائفين منذ خلق الله سبحانه وتعالى البيت، فلا تخلو من الطائفين بها من إنس أو جن أو ملائكة. والطواف حول الكعبة منه ما هو فرض وواجب وهو طواف الإفاضة، ومنه ما هو سنة كطواف التحية. والطواف سواء كان ركنًا أو تطوعًا فلابد فيه من الطهارة والوضوء، فالطواف عبادة كالصلاة، إلا أنه يصح فيه الكلام، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بحق.

(١) الآية ١٤٤ من سورة البقرة.

- ومن خصائص البيت أيضًا ما رواه ابن حبان مرفوعًا: إن الحاج إذا قضى آخر طوافه بالبيت. خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.[1] عن عمر رضي الله عنه قال: من أتى هذا البيت لا ينتهزه - أي لا يحركه - غير صلاة فيه، رجع كيوم ولدته أمه[2]. وفي هذا ما يدل على مكانة هذه العبادة - وهي الطواف - ومنزلة الكعبة المشرفة التي جعلها الله قيامًا للناس وقبلةً تتجه إليها الوجوه في كل صلاة.
- ومن خصائص البيت أن أهله يلقبون بأنهم أهل الله، قال ابن أبي مليكة: "كان السلف يلقبونهم بذلك. وعنه ﷺ أنه لما استعمل عتاب بن أسيد على مكة قال: "أتدري على ما استعملتك؟ استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيرًا، فاستوص بهم خيرًا، فاستوص بهم خيرًا". وإنما كان لأهل الحرم هذه المنزلة الرفيعة، لأنهم القائمون على خدمة البيت الحرام والبلد الحرام وخدمة ضيوف الرحمن الذين يأتون من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا ربهم ويؤدوا مناسك الحج وشعائر هذه العبادة على أكمل وجه.

لقد وصف أهل الحرم بذلك لأنهم القائمون على شئون البلد الحرام والبيت الحرام والقائمون بعبادة الله تعالى في مكان جعل الله تعالى الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه وجعل العبادة فيه مضاعفةً عن غيره من الأماكن الأخرى.

من خصائص الحرم المكي

- من خصائص الحرم المكي أيضًا أن لمقبرة مكة منزلة يشهد لها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لمقبرة مكة: "نعم المقبرة

(١) الصحيح لابن حبان.

(٢) السنن لسعيد بن منصور.

هذه". [1] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: وقف رسول الله ﷺ على الثَّنيَّة ثَنيَّةِ المقبرة وليس بها يومئذ مقبرة قال: "يبعث الله عز وجل من هذه البقعة أو من هذا الحرم كله سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا، وجوههم كالقمر ليلة البدر". قال أبوبكر رضي الله عنه: ومن هم يا رسول الله؟ قال: "هم الغرباء". [2]

- ومن خصوصية البلد الحرام أن الله تعالى اختصها بمشاعر عظيمة، منها الكعبة التي يطوف بها الحجاج والعمار، وحجر إسماعيل عليه السلام، والصفا والمروة، وزمزم، وعرفات حيث وقوف الحجاج عليه في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، وفيها كذلك المزدلفة حيث المشعر الحرام الذي ذكره الله تعالى في قوله سبحانه:

((فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ)) [3]

وفي البلد الحرام أيضًا منى التي يبيت بها الحجيج أيام الحج ويرمون بها الجمرات، ويذكرون الله تعالى، وينحرون بها هديهم.

- ومن خصوصيات الحرم المكي ماء زمزم الذي تفجر في تلك البقعة المباركة، عندما ترك إبراهيم عليه السلام إسماعيل وأمه وانتهى ما معها من زاد وماء وأخذت تبحث بين الصفا والمروة حتى تفضل الله تعالى فتفجر ماء

(١) أخرجه البزار.

(٢) أخرجه الجندي في فضائل مكة.

(٣) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

زمزم، فهو هزمة جبريل عليه السلام أي ضربته؛ لأنه ضرب برجله الماء، وفي الحديث: "إنها مباركة، إنها طعام طعم، وشفاء سقم"، وقال ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له".

وقد تقوّت أبو ذر الغفاري من ماء زمزم ثلاثين ليلة ويومًا، فسمن حتى تكسرت عكن بطنه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم؛ فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم"، وفي ماء زمزم آيات بينات منها: أنه يقتات به، ولهذا لا يجوز الاستنجاء به لكرامته ومنزلته، ومنها أنه لما شرب له. ومنها أن الله تعالى خصه بالملوحة، ليكون الباعث عليه الملمح الإيماني، ولو كان الماء عذبًا جدًا لغلب الطبع البشري، وبهذا يرد على أبي العلاء المعري في قوله:

لك الحمد أمواه البلاد بأسرها ∴ عذاب وخصت بالملوحة زمزم

ومنها: أن الله تعالى يعظم ماءها في موسم الحج ويكثره كثرة كبرى ويحلو فضلا من الله سبحانه وتعالى.

- ومن خصائص الحرم المكي وهي أيضًا من خصائص الحرم النبوي: أن رواية أهل الحرمين مقدمة في الأغلب الأعم على رواية غيرهم وآكد منها وأقوى؛ وذلك لأنهم أعلم بحال رسول الله ﷺ وأقرب عهدًا وصلةً من غيرهم. فعلى أرضهم تنزل الوحي وفي بقاعهم كانت الدعوة الإسلامية، وأخذ الناس عن رسولهم صلوات الله وسلامه عليه، وقد تتابعت رواية الحديث عنهم، وأخذ الخلف عن السلف، ولذلك قال بعض المحدثين: إذا جاوز الحديث الحرمين، انقطع نخاعه (يعني مكة والمدينة). والمراد بقولهم: انقطع نخاعه.

أي كان كالإنسان الذي ينقطع نخاعه، فهو بلا شك يصبح بلا حياة كالميت. وفي هذا التعبير مبالغة في قوة أحاديث أهل الحرمين، ولا يراد به تضعيف أحاديث غيرهم من أهل البلاد الأخرى، فقد يوجد في بعض الأمصار الإسلامية من المحدثين من له رسوخ قدم في صحة رواية الحديث وقوتها؛ بل قد يوجد لدى بعضهم أكثر مما يوجد عند أهل الحرمين، إذن فهذه المقولة لا تؤخذ بإطلاق بل على سبيل المبالغة وفي الأكثر، وإلا فقد يوجد خلاف ذلك.

ومن خصائص الحرم المكي - ويشاركه في ذلك الحرم النبوي - أن المسيح الدجال لا يدخل مكة ولا المدينة، والمسيح الدجال فتنة للناس، وهو من علامات الساعة، ويظهر في آخر الزمان. وقد استعاذ رسول الله ﷺ من فتنته فقال: "اللهم إني أعوذ بك من فتنة القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال". عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين يحرسونها"[1]. وفي آخر الزمان يحصل للمدينة ثلاث رجفات أي زلزلة وبعد الرجفة الثالثة يخرج الله منها من ليس مخلصاً في إيمانه ويبقي بها المؤمن المخلص فلا يسلط عليه الدجال، كما جاء في رواية الإمام البخاري: "ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس من أنقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر منافق".

- ومن خصائص الحرم المكي أن من زار بيت الله الحرام حاجًا أو معتمرًا، لا يزال في سمو وتعظيم، ومهابة وتكريم وبر، فقد أمرنا بالدعاء عند البيت،

---

(١) متفق عليه.



ومن الدعاء المأثور: "اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا، وزد من زاره ممن حج أو اعتمر تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا".

- ومن خصائص الحرم المكي لمن كان صائمًا وأفطر فيه أن يفطر على ماء زمزم، إذ إن المستحب للصائم أن يفطر على تمر، فإن لم يجد فعلى ماء. قال المحب الطبري: ومن كان بمكة، استحب له أن يفطر على ماء زمزم لبركته، ولو جمع بينه وبين التمر فحسن. قال: والقصد بذلك ألا يدخل جوفه أولاً ما مسته النار، ويحتمل أن يراد هذا مع قصد الحلاوة تفاؤلاً بها.
- ومن خصائص الحرم المكي أن احتكار الطعام في مكة المكرمة إلحاد، ومعلوم أن الاحتكار في كل زمان ومكان حرام، وقد نهى الإسلام عن الاحتكار، لما فيه من إيقاع الضرر بالناس في حاجاتهم الضرورية، وإذا كان الاحتكار حرامًا في كل وقت ومكان، فهو في الحرم أشد تحريمًا، ويتضاعف الذنب عليه حتى أنه يكون إلحادًا، فيصل إلى أكبر درجات الذنوب.
- ومن خصائص الحرم المكي: أن الله تعالى صان بيته الحرام وبلده الحرام من أن يجاوره فيه مرتكب لكبيرة من الكبائر الفاحشة مثل سفك الدماء، فقد روى الحافظ أبوالقاسم الأصبهاني عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يسكن مكة سافك دم ولا مشاء بنميم".

فالبلد الحرام جعله الله تعالى حرمًا آمنًا، يأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومن دخله كان آمنا.

- ومن خصائص الحرم المكي أن بعض العلماء قد تسامح في ذرق الحمام في الحرم، ولأجل ذلك اختار الروياني طهارة بول ما يؤكل لحمه، قال:

وعليه عمل أهل الحرمين. قال: وهو الاختيار. ولهذا لم يُنَزِّه الله منه أفضل البقاع وهو المسجد الحرام مع أمره بالتطهير في قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]

● ومن خصائص الحرم المكي ما فيه من آيات بينات منها: مقام إبراهيم عليه السلام، الذي أشار القرآن الكريم إليه في قول الله تعالى:

((فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ))[2]

ومقام إبراهيم عليه السلام هو الحجر المعروف الذي كان يقف عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ارتفع بناء البيت وطال به البناء، فكلما علا الجدار ارتفع به الحجر في الهواء. فما زال يبني وهو قائم عليه. وكان ابنه سيدنا إسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة والطين حتى أكمل بناء الجدار، فأراد الله تعالى أن يبقي ذلك آية للعالمين، فلين الحجر حتى غاصت فيه قدما سيدنا إبراهيم عليه السلام كأنهما في شيء لين كالطين، وهذا الأثر باق وموجود إلى يومنا هذا في الحجر، قال مجاهد رضي الله عنه: أثر قدميه في المقام آية بينة. قال أبو طالب:

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الحج.

(٢) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

وموطيء إبراهيم في الصخر رطبة ∴ على قدميه حافيا غير ناعل

وكان الحجر ملصقًا بجدار البيت حتى أخَّره سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطائفون من طوافهم وخشوعهم وعبادتهم، وبحيث لا يحدث تشويش على المصلي عند مقام إبراهيم بعد الطواف، وذلك أن الطائفين يصلون ركعتين سنة الطواف عند مقام إبراهيم فلو بقي الحجر ملصقا بالكعبة لتضرر المصلون بسبب تشويش الطائفين وارتفاع أصواتهم عند دعائهم، ولأن المصلين حريصون على أن يؤدوا صلاة الركعتين عند مقام إبراهيم استجابة لقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[1]

فما فعله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو اجتهاد منه حيث نقل الحجر - وهو مقام إبراهيم - أي المكان الذي كان يقوم عليه أثناء بناء الكعبة، مع أنه كان ملصقًا بالكعبة في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولكنه لما رأى كثرة الطائفين، ورأى - باجتهاده - أن في نقله مصلحة للطائفين وللمصلين نقله، فحيث توجد المصلحة فثم شرع الله؛ لأن الله تعالى ما جعل علينا في الدين من حرج.

ويا ليت الطائفين الذين ينتهون من طوافهم ويريدون أن يؤدوا صلاة الركعتين عند مقام إبراهيم أن يؤدوهما حيث يكونون قريبين منه بعض الشيء، ولو تباعدوا

(١) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

عنه شيئا فإن صلاتهم للركعتين صحيحة، إلا أننا نشاهد في أيام الحج بعض الذين يصلون الركعتين هناك يضيقون على الطائفين، حيث يعقدون حلقات بأذرعهم ويتألم المارة في الطواف ويحدث اختناق في المطاف عند هذا الموضع بسبب الذين يصرون على أداء الصلاة في وسط إخوانهم الطائفين، ومعلوم أنهم لو صلوا الركعتين في مُسَامَتَةِ الحجر أمامه وتباعدوا بعض الشيء فإن صلاتهم صحيحة. وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره ـ من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: (مقام إبراهيم) قال: الحرم كله مقام إبراهيم. وفي رواية: الحج كله مقام إبراهيم. كما قاله مجاهد.

● ومن خصائص الحرم المكي أن الكعبة المشرفة لا يتمثل الشيطان بها لأي أحد في المنام، كما أن الشيطان لا يتمثل بالرسول ﷺ في المنام كما ثبت هذا في الأحاديث، ومن الأحاديث ما جاء فيه النص على عدم تمثل الشيطان بالكعبة أيضًا، كما أورده الطبراني في معجمه:

عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

"من رآني في منامه فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي ولا بالكعبة".[1]

فهي بيت الله والمعروفة والموصوفة بأنها "الكعبة المشرفة"، وهي قبلة المسلمين في صلاتهم، وجعلها الله قياما للناس، زادها الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا ومهابةً وبرًا.

---

(١) رواه الطبراني في معجمه من طريق عبدالرازق وتفرد به عن عبد الرازق محمد بن أبي السري العقلاني قال: وهذه اللفظة: "ولا بالكعبة" لا تحفظ إلا في هذا الحديث.

ومن خصائص الحرم المكي أن من نذر إتيان المسجد الحرام لزمه ذلك؛ لحديث الرسول ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى". وينعقد نذره بحج أو عمرة، نص عليه الشافعي وقاله القاضي الحسين لحديث أخت عقبة أنها نذرت أن تمشي إلى بيت الله فأمرها رسول الله ﷺ أن تمشي بحج أو عمرة؛ لأن مطلق كلام الناذرين محمول على ما ثبت له أصل في الشرع، كمن نذر أن يصلي يلزمه الصلاة المعهودة شرعًا، والمعهود في الشرع والعرف: قصد المسجد الحرام بالحج والعمرة، فيحمل نذره عليه.

ومن خصائص الحرم المكي صلاة الاستسقاء وصلاة العيد فيه، إذ السنة صلاتهما في الصحراء أو مصلى العيد، إلا في مكة المكرمة أو في بيت المقدس وعليه عمل السلف والخلف؛ لفضل البقعة وسعتها.

- وقد اختص الله تعالى بيته الحرام بأن جعله أول بيت وضع للناس، وجعل فيه آيات بينات، وأسبغ نعمة الأمان على من دخله، قال سبحانه:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾(١)

وسمى الله بيته البيت العتيق؛ في قوله سبحانه: (ثم محلها إلى البيت العتيق) وذلك لأن رب العزة سبحانه وتعالى أعتقه من الجبابرة، فلم يستولِ عليه أحد من الجبابرة ولم يظهر عليه أحد، فقد صانه رب العالمين من جميع الطغاة

---

(١) الآيتان ٩٦ و٩٧ من سورة آل عمران.

والمعتدين كما حدث لجيش أبرهة حيث جعلهم الله كعصف مأكول، وحمى الله بيته، إن للبيت ربًا يحميه. وسمي بالعتيق لأنه قديم ولأنه لم يملك قط فلم يحدث أن تملكه أحد من الناس، وأن الله تعالى قد أعتقه أيضًا من الغرق في زمن الطوفان.

- ومن أفضلية المسجد الحرام أن الله تعالى ضاعف ثواب الصلاة فيه، حيث جعل الله الصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة فيما سواه، وجعل الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في ذلك أفضل من مائة صلاة في هذا"، يعني مسجد المدينة[١]..والمسجد الحرام هو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال كما قال الرسول ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى"[٢].
- ومن فضائل البيت الحرام أن الدعاء يستجاب عند رؤية الكعبة المشرفة عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن، عند التقاء الصفوف ونزول الغيث وإقامة الصلاة ورؤية الكعبة"[٣] ومما يذكر في فضائل الكعبة ما روي عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال: النظر إلى الكعبة عبادة. وقد أمتن الله تعالى على أهل مكة حيث جعلها حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حوله فقال الله - سبحانه - محتجًا على أهل مكة ومذكرًا لهم بنعمة الأمان:

(١) رواه أحمد في مسنده.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البيهقي.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1]

بل إن نعمة الأمان لم تقتصر على الإنسان؛ بل شملت أيضًا النبات والحيوان. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ - يوم فتح مكة -: "إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله عز وجل إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يُختلى خلاه"[2].

ولمكة المكرمة منزلتها عبر عصور التاريخ، فكان الناس يعرفون لها قدرها ويعظمون الحرم ويحققون الأمان فيه حتى قبل الإسلام، وقد تعاهد زعماء مكة وتحالفوا فيما بينهم أن ينصروا المظلوم وأن يأخذوا بحقه من ظالمه وأن يكونوا عونا له سواء كان من أهل مكة أو من خارجها ممن دخلها من الناس، وأن يظلوا مع المظلوم حتى ترد له مظلمته، وسمي هذا الحلف بحلف الفضول، وقد شهد هذا الحلف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتحدث عنه وأشاد به حيث قال:

"لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت".

(١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت.

(٢) متفق عليه.

وهذا يدل على ما كانت تموج به مكة ـ حتى قبل الإسلام ـ من دعوات خير وإصلاح كان يجتهد فيها بعض وجهائها وزعمائها، استشعاراً لعظمة مكة وحرمتها، وعرفاناً بمكانتها الروحية والدينية التي جعلت ـ بوجود الكعبة المشرفة فيها ـ هذا البلد آمناً، مهيباً، مشرفاً.

اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابةً وبراً، وزد من زاره ممن حج أو اعتمر تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابةً وبراً.

الفهرس الموضوعي